الثورات والانتفاضات في مصر
في عصر دولة المماليك الجراكسه

أ.د عفاف صبرة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الدراسات الأنسانية جامعة الأزهر فرع البنات

الثورة:

الثورة لغوياً تعني هاج، وثور الغضب حدته، والثائر، الغضبان[١].

أما معناها اصطلاحا فهي مصطلح سياسي يعني الخروج على الوضع الراهن وتغييره سواء إلى وضع أفضل أو أسوأ، وهو اندفاع يحركه عدم الرضا والتطلع إلى الأفضل، أو حتى الغضب.

أما الانتفاضة لغوياً النفض مصدر، نفضت الثوب إذا حركته، ينتفض أي تزعزعه، وتنفض التراب عنه [٢].

أما اصطلاحا، فهي تعني حركة شعبية واسعة مقاومة للظلم.

ومن المعنى الذي تقدم نستطيع أن نوضح ونقول أن الثورة هي الخروج عن المألوف والسائد بتحرك للإنسان يمكنه من أن يغير وضعاً ويقتلع نظاماً، ويأتي بجديد.

والانتفاضة هي الأخرى ، تحرك للتعبير عن استياء ورفض لشئ مطلوب تغييره وتعديله، لكن من الممكن ألا تأتي الانتفاضة بنتيجة حاسمة، عكس الثورة التي لابد في حالة نجاحها، من أن تحقق تغييراً كاملاً.

لذلك فإن قضية الثورات والانتفاضات في العصر المملوكي الثاني هي محاولة لرصد واقع حدث في عصر الجراكسة، وتحديد الحركات الشعبية التي قامت بها جميع فئات الشعب وطبقاته لمواجهة الأزمات ، أو للمطالبة بالتغيير في ظل واقع مرير غلب عليه الظلم والقهر.

لذلك لابد أن نحدد ملامح ومحاور الدراسة والتي ستتناول أولاً ما يمكن أن نعتبره ثورة للتغيير، نوضح منها كيف نجحت إرادة الشعب في تغيير النظام السياسي السائد، وهذا ما

سنطبقه فقط على السلطان الظاهر برقوق ٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٩م ، الذي نجح في تغيير نظام الحكم في الدولة المملوكية ، وأسقط دولة المماليك البحرية المعروفة بالدولة الأولى ، وأقام دولة المماليك الجراكسة ، كما نجح في القضاء على نظام وراثة الحكم في الأبناء والأحفاد والذي كان قائماً منذ عهد السلطان المنصور قلاوون ٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م .

كما ستبرز ملامح وشكل الثورة في العربان الذين تبنوا الفكر الثوري ضد السلطة السياسية القائمة ، وخرجوا عليها طامعين في التغيير والوصول إلى سدة الحكم فقد نادوا دائماً بأنهم أحق بالملك من المماليك واتبعوا ذلك بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق براً وبحراً وتعطيل التجارة والسفر(٣).

أما عن الانتفاضات التي قامت بها فئات كثيرة من الشعب للتعبير عن الظلم والقهر الذي يستشعرونه فسينطبق ذلك على المماليك السلطانية الذين نافسوا وتناحروا وخرجوا على السلطة ، وكذلك في عامة الشعب المصري بجميع فئاتهم ثم المماليك الجلبان الذين انتفضوا وتمردوا وخرجوا على جميع سلاطين هذه الفترة خاصة منذ عهد السلطان الأشرف برسباي ٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م ، كما خرجوا على رجال الحكم والإدارة .

وبذلك نرى أن تسجيلنا للأحداث سيبدأ من عهد السلطان الظاهر برقوق ٧٨٤ – ٧٩١هـ/ ١٣٨٢ – ١٣٨٩م ، وهي فترة سلطنته الأولى ثم ٧٩٢ – ٨٠١هـ/ ١٣٩٠ – ١٣٩٩م ، وهي الفترة الثانية.

ولابد أن نوضح قبل الخوض في الدراسة أن المملوك برقوق الجركسي لم تكن تجري في عروقه دماء سلطانية ، لكنه استطاع أن يضع خطة للقضاء على دولة بني قلاوون ، وإنهاء الحكم

الوراثي الذي سارت عليه، ونقل السلطة إلى الجراكسة ، بطريقة وضحت فيها الاتجاهات العصبية العنصرية التي لم تفارق طبيعة الجراكسة أبداً [٤].

يعود الفضل في تكوين المماليك الجراكسة إلى السلطان المنصور قلاوون الذي عمل على تكوين فرق منهم منذ عام ٦٨١هـ/ ١٢٨١م ، حتى أصبحوا عماد الدولة وفرق لا يستهان بها ، فضلاً عن كثرتهم العددية ، وصار أغلبهم في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية ٦٩٨ – ٧٠٨هـ/ ١٢٩٩-١٣٠٨م من كبار الأمراء ، بل أصبح منهم أمراء ألوف ، وعين البعض الآخر نواباً في الشام ومصر [٥].

لعب الجراكسة دوراً كبيراً في الأحداث التي تعرضت لها دولة المماليك الأولى منذ عهد السلطان خليل بن قلاوون ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠ – ١٢٩٢م ، وفي أحداث قتله الذي اتهم فيه أحد المماليك الترك وهو بيدرا نائب السلطنة ولاجين السلاحدار [٦]. وكذلك في الأحداث التي تلت ذلك عندما تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٢م، وهو ابن التسع سنوات ، وكان نائب السلطنة كتبغا المغولي ، والوزير سنجر الشجاعي التركي [٧].

لذلك بدأ الصراع بين طائفة المماليك التركية والجركسية منذ ذلك التاريخ واستمر طوال فترة سلطنة الناصر محمد التي تقلدها ثلاث مرات ، وظهر التنافس واضحاً حين عمد كل منهم إلى زيادة نصيبه من الإقطاعات ، ومن مناصب الإمارة المملوكية، حتى يسهل عليهم خلع السلطان مما دفع الناصر محمد في سلطنته الثالثة إلى تغيير سياسته تجاه الجراكسة والعمل على الانتقام منهم ، وزاد من عدد المماليك الترك رغبة منه في مواجهة زيادة نفوذ الجراكسة [٨]. لذلك عمد الجراكسة على التآمر عليه مما دفعه إلى اضطهادهم [٩].

توقف الصراع بين طائفتي الترك والجراكسة في عهد أبناء الناصر محمد الأوائل حتى عام ٧٤٦هـ / ١٣٤٥ م عندما اعتلى العرش إبنه السلطان شعبان فبدأ نشاط الجراكسة وحاولوا عزل السلطان، ودبر هذه المؤامرة الأمير غرلو الجركسي شاد الدواوين بمساعدة يلبغا اليحياوي نائب دمشق[١٠]. وفعلاً نجحا في عزل السلطان شعبان، ونصبوا أخيه حاجي بن الناصر محمد ولقبوه بالمظفر[١١]. وتم تعيين غرلو نائباً للسلطنة وتمكن من الهيمنة على السلطان، إلى جانب جلبه لعدد كبير من المماليك الجراكسة الذين أصبحوا قوة تواجه المماليك الترك. لذلك عمل هؤلاء الأتراك على تحريض السلطان على التصدي للجراكسة بل إن غرلو نفسه زين للسلطان ذلك، مما دفع هؤلاء الترك لأن يوشو به عند السلطان بأنه يعمل على الثورة على بيت قلاوون [١٢]، والإطاحة بهم.

لذلك قرر السلطان قتل غرلو وتم ذلك فعلاً، وبعدها بدأ هؤلاء الترك الانقلاب على السلطان حاجي نفسه مما دفعه إلى الإطاحة بمعظمهم وتشريدهم في البلاد ، لذلك خرج نائب السلطنة الأمير أرقطاي التركي للدفاع عن أخوانه وإعلان الثورة على السلطان ، مما دفعه إلى التلاحم مع الجراكسة، للتصدي لهؤلاء الترك الذين تمكنوا من قتل السلطان عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م[١٣].

كان لمقتل السلطان حاجي على يد الترك أن بدأ الجراكسة يتحركون بصورة كبيرة في المجال السياسي وتدخلوا وتنافسوا مع الترك في تعيين بقية أولاد الناصر محمد وأحفاده حتى وصل الأمر أن واحداً من قادة الجراكسة وهو يلبغا العمري أصبح يعزل ويعين السلاطين الذين كان آخرهم شعبان بن الناصر حسن ، وأصبح أتابكاله ، وكون يلبغا لنفسه مجموعة عرفوا باليلبغاوية ، كان لهم دور كبير في الأحداث التالية رغم مقتل أستاذهم يلبغا في ١٢ من ربيع الآخر عام ٧٦٨م[١٤].

كان من أبرز مماليك يلبغا برقوق الذي سيقوم بالثورة التي نحن بصدد الحديث عنها. فقد كانت الأحوال تنذر بزوال حكم بيت قلاوون وتمهد للعناصر الطامعة في الحكم أن تصل إليه.

وصل برقوق إلى مناصب كبرى في الدولة منها خدمة الأمير أينبك البدري اليلبغاوي، وقد استغل برقوق الصراع الدائر بين هؤلاء الأمراء ليحقق غرضه في الثورة على هذه الأسرة الحاكمة، وبدأ يتقلد كثيراً من المناصب منها أمير طبلخانه، وأمير سلاح حتى وصل في عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م إلى منصب الأتابكية، وكل ذلك وهو يعمل جاهداً على الإطاحة بالسلطنة المملوكية الأولى ورسم خطة محكمة لهذا الأمر (١٥).

برز إلى جانب برقوق شخصيتان مهمتان وهما يلبغا الناصري، وبركة الجوباني وأصبح هؤلاء الثلاثة هم أصحاب الحل العقد (١٦)، ولم يعد للسلطان على أحد منهم أي نفوذ، وبدا كأنما الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط وأصبح الناس يقصدون أبواب هؤلاء الأمراء خاصة برقوق وبركة وعبر الناس عن هذا الموقف بقولهم "برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة"(١٧).

نجح برقوق في التصدي لكثير من مؤامرات الأمراء المماليك لمواجهته مثل إينال اليوسفي الجركسي الذي كاد أن يحقق غرضه لولا نجاح خطة برقوق وأتباعه التي أدت إلى القبض على إينال الذي أوضح له أنه لم يخرج عليه شخصياً وإنما غرضه الأساسي هو إبعاد بركة عن مسرح السياسة (١٨).

كانت أهم ملامح هذه الفترة هي تلاشي شخصية السلطان وارتفاع الأمراء. وكان أبرزهم برقوق الذي يعتمد على العصبية الجركسية، وبركة الذي يعتمد على الترك، إلى جانب يلبغا الناصري. وكذلك المماليك الأشرفية وهم أتباع السلطان الأشرف شعبان، لذلك بدأ الصراع

يحتدم بين هؤلاء جميعاً على المناصب والمزايا مما كان ينذر بصدام عسكري حدث فعلاً في عام ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م. فقد اشتعلت فتنة كبيرة انتهت بهزيمة بركة هزيمة نكراء هرب على إثرها واختفى حتى قبض عليه برقوق وحبسه بالإسكندرية مع عدد من مماليكه(١٩).

لم يكن الانتصار الذي حققه برقوق على زميله بركة فقط، لكنه قبض على يلبغا الناصري وسجنه وقبض على مماليكه ووزع اقطاعاتهم وإقطاع بركة على المماليك الجراكسه(٢٠).

ارتفع شأن المماليك الجراكسة على حساب الترك، كما ارتفع اسم الأمير برقوق على اسم السلطان حتى أن المقريزي يرى أن الثورة والانقلاب حدث فعلاً "فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا وسجنوا. ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنة كبيرة، ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك.. فلما كانت حركة إينال جهروا بذلك وقالوا من غير احتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم"(٢١).

وكانت خطة برقوق لتنفيذ ثورته وإحداث الانقلاب بعد أن تنضج الثمرة هي زيادة عدد الجراكسة، لذا عمل على جلب أفراد أسرته وذويه وخلع عليهم الخلع، ومنحهم الوظائف مما أدى إلى تهيأة الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء الجراكسه(٢٢).

توفى السلطان علي بن شعبان في ٢٣ صفر ٧٨٣هـ / ١٣٨١م وكان من الممكن أن يقوم برقوق بالانقلاب مباشرة، لكن آثر التريث حتى يحين الوقت المناسب ولذا وافق على تعيين السلطان أمير حاجي ابن السلطان علي وهو في التاسعة من عمره ولقب بالصالح حاجي بمشاركة برقوق، الذي كان صاحب الأمر والنهي في البلاد، حتى أنه عين عدداً كبيراً من زملائه المماليك اليلبغاويه(٢٣) ، كما قام بكثير من الاصطلاحات عملت على تدعيم مركزه وثقة الناس فيه، بل

تطلعهم إلى تولية السلطة الرسمية. لمن حقق انتصارات خارجية جعلت اسمه بدوى في جميع أرجاء البلاد(٢٤).

عندما تأكد برقوق من حقيقة شعور أهل البلاد تجاهه بدأ يخطط للانقلاب فتظاهر بحرصه على حياة السلطان حاجي فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان، وكان لكشف هذه المؤامرة، صدى في موقف الأمراء المناصرين لبرقوق ، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم، واجتمعوا للتفاوض في إسقاط سلطنة الصغار وإقامة برقوق سلطاناً على البلاد(٢٥).

وهنا نعتبر ما قام به برقوق هو نجاح لثورة حركتها قوى المماليك الجراكسة ضد السلطة الحاكمة وهم أبناء وأحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعصبتهم من المماليك الأتراك.

فتن المماليك ضد الدولة الجديدة:

واجهت هذه الدولة الجديدة التي قامت في أعقاب هذا التغيير الكبير الذي شهدته البلاد ، فتناً وانتفاضات من عناصر شتى كان أولها – هؤلاء الذين أخذت هذه الدولة الجديدة مكانهم وحلت محلهم ، وأولهم المماليك الأشرفيه أي أتباع الأشرف شعبان ، الذين تخلص منهم برقوق، ليجد أمامه فتناً أخرى كبيرة، أهمها ما قام به يلبغا الناصري الذي أعاده برقوق لولاية حلب ، فقد تحالف مع منطاش نائب ملطية، وحدثت بينهما تحركات ضد الدولة في بلاد الشام ، لكننا لن نخوض في فتن بلاد الشام ، لذا فما يهمنا من هذه الحركة هو تجهيز حملة عسكرية كبيرة من المماليك في مصر لقتالهما، خاصة وأن يلبغا قدم بجيشه في اتجاه القاهرة ، بعد أن دانت له بلاد الشام كلها(٢٦).

وقد نجح هؤلاء المعتدين في ضم عدد كبير من مماليك برقوق وأتباعه إليهما، حتى اضطر برقوق للهرب، ونجح يلبغا ومنطاش في دخول القاهرة، وسقط حكم برقوق الذي دام "ست سنين وثمانية أشهر، وسبعة عشر يوماً" (٢٧)، وأعادوا الصالح حاجي بن الأشرف مرة أخرى.

لم تطل مدة هروب برقوق طويلاً، فلم يلبث أن قتل يلبغا ومنطاش وعاد برقوق إلى السلطنة مرة أخرى في عام ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م (٢٨).

اعتقد برقوق أن من أول واجباته بعد التخلص من يلبغا الناصري، هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك، أو ممن يميلون إليهم (٢٩)، وأعقب ذلك بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة(٣٠).

استطاع برقوق بعد حرب الإبادة هذه على المماليك الترك إزالة أهم عقبة اعترضته في سبيل تدعيم دولته حتى أننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن محاولات ذات قيمة في العصر الجركسي(٣١).

ومن هذه المحاولات التي وأدت في الحال ما حدث من قبل نائب الشام نوروز الحافظي الذي تآمر على السلطة في عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، حتى أن برقوق نجح في القضاء على هذه الفتنة قبل وقوعها، وقام بالقبض على جميع المشاركين فيها، وسجنهم وصادر إقطاعاتهم ووزعها على غيرهم انتقاما منهم(٣٢).

وفي عهد السلطان فرج بن برقوق ٨٠١ – ٨٠٨هـ/ ١٣٩٩-١٤٠٥م تعرضت الدولة لانتفاضات من جانب الأمراء المماليك ، بسبب تحاسدهم ومحاولة كل منهم الوصول إلى المناصب العليا في الدولة من ذلك ما حدث في ٨٠٤-٨٠٥هـ/ ١٤٠٢-١٤٠٣م عندما حاول الأمير

سودون طاز الإيقاع بالأميرين نوروز وجكم مما دفعهما إلى جمع المماليك حولهما، واستعدا للحرب ، فاضطر الناصر فرج لقتالهما، ونجح في ذلك وهزمهما وقبض عليهما وسجنا بالإسكندرية[٣٣] ، وبعدها تحرك سودون طاز، وخرج على السلطان ، وعلى الأمير يشبك الدوادار، "وكانت فتنة كبيرة قمعها السلطان"[٣٤].

تعرضت مصر لحركة كبيرة مضادة للسلطة في ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م، وضح فيها الصراع العرقي والعنصري وذلك فيما قام به المماليك الجراكسة ضد المماليك الروم والذين قدموا عليهم، فأرادوا إبعادهم، خاصة وأن السلطان فرج قد اهتم بهم، لذلك تجمع الجراكسة وطلبوا من السلطان إبعاد الروم فرفض، فتجمع الجراكسة في حركة معارضة قوية تحت القلعة وأخذوا يمنعون كل من يقصد السلطان لمدة أربعة أيام مصممين على أن يبعث إليهم السلطان بالأمراء الروم[٣٥] الذين حددهم ، فاضطر السلطان لتلبية مطلبهم ، فقبضوا على هؤلاء الأمراء[٣٦].

ولعل هذا الموقف يوضح أن هذه الانتفاضة للمماليك نجحت في إجبار السلطان على الرضوخ لمطالب الثوار، بل إن الأمر وصل في النهاية إلى أن السلطان فرج ضاق ذرعا بما يفعله به هؤلاء لأن الفوضى عمت مدينة القاهرة، فاختفى عن مسرح الأحداث قرابة شهرين ، وحل محله أخوه المنصور عبد العزيز سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م حتى هدأت الأمور وبعدها تمكن الأمير يشبك من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة في نفس العام[٣٧].

ومن أبرز حركات الانتفاضات التي حدثت في العصر المملوكي، وأدت إلى تغيير، واستجابة للمطالب ما حدث في ٨٤٢هـ/١٤٣٨م في عهد السلطان الظاهر جقمق والتي تعرف بحركة الأمير قرقماش الشعباني الناصري وهو من مماليك السلطان برقوق واشتراه صغيراً ومنحه لولده فرج

الذي رقاه في خدمته ثم خدم بعده للمؤيد شـيخ دوادارا ثم أمير مائة أيام الأشـرف وولاه حاجب الحجابه ثم نيابة حلب ثم منها إلى مصر التي أصبح فيها مقدماً للعسكر[٣٨].

لذلك كان تواقاً للرئاسـة بل اعتقد أنه "لابد أن يملك الديار المصـرية"[٣٩]، ومن أجل ذلك بدأ يعد العدة للخروج على السلطة فجمع حوله المماليك الأشـرفية برسباي وكانت خطته في ذلك هي إبعاد ابن أستاذهم برسباي وهو العزيز جمال الدين يوسف ٨٤١هـ - ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م، وتوليه جقمق، الذي يرون أنه عندما ينفذ الخطة ويعزل ابن برسـباي فسـينقلب عليه المماليك الأشـرفية، وينضـموا إلى قرقماس. وفعلاً تم ذلك وتسلطن جقمق ٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م الذي كان يعتبر أقوى الأمراء حينئذ[٤٠].

قرر قرقماس فيما بعد تنفيذ خطته في الخروج بانتفاضـة وتمرد على السـلطان جقمق فجمع حوله المماليك الأشـرفية والقرانصـة[٤١] الذين كانوا يطالبون "من السـلطان الزيادة في جوامكهم ومرتب لحمهم"[٤٢] ، ثم تجمعوا تحت القلعة وكانوا يجتمعون مع كل أمير من الأمراء على حده بعد خروجه من عند السـلطان حتى قدم قرقماس فالتفوا حوله وأجبروه على أن يوافقهم على محاربة السلطان، وكان في ذلك هوى في نفسه.

لذلك خرج قرقماس مع هذه الفرق لمواجهة السـلطان جقمق ومماليكه، وفي الحال نجح السـلطان في وأد هذه الفتنة وانتصـر على هذه الحركة وتم القبض على قرقماس الذي أمنه رجال السـلطان في البداية وأركبوه فرسـاً ومروا به "وقد اجتمع من الخلائق لرؤيته فمنهم من يسـبه ومنهم من يدعو عليه ، حتى صـعد القلعة فعندما عاين السـلطان خر على وجهه يقبل الأرض... وقد قرب من السلطان فوعده بخير، وأمر به فأدخل إلى مكان وقيد بالحديد وهو يشكو من الجوع فأتى بطعام ، هذا وقد لهجت العامة في الأسـواق تقول "الفقر والإفلاس ولا ذلتك يا قرقماس"[٤٣].

ونستطيع أن نسجل ثورة وتمرداً آخر أثر على الأوضاع في مصر عام ٨٥٧هـ/١٤٠٣ عندما تولى السلطنة الأمير المنصور عثمان بن جقمق بعد وفاة والده الذي عمل على القبض على المماليك الأشرفية برسباي والمؤيدية شيخ بناء على رأي مماليك أبيه الظاهرية ، كما أنه كان يسئ معاملتهم كثيراً مما دفعهم إلى التحالف ضده، حتى أن ثورة الأشرفية والمؤيدية ضد السلطان المنصور في هذا العام بلغت درجة كبيرة جداً من العنف والشدة كانت نتائجها وخيمة على الجانبين ، فقد أدت إلى قتل وجرح الكثيرين ، وكان من نتيجة ذلك حدوث تغيير في السلطة الحاكمة إذ نجح هؤلاء الخارجين في التوجه إلى بيت الأمير الكبير إقبال العلائي وأعلنوا خروجهم عن طاعة السلطان الذي لم يمكث في السلطنة أكثر من ثلاثة وأربعين يوماً ، وبعدها استدعوا الخليفة العباسى القائم بأمر الله وقاموا بخلع المنصور عثمان وتولية الأمير إينال الذي لقب بالأشرف(٤٤).

ويعلق أبو المحاسن على حال السلطنة المملوكية آنذاك بقوله " ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة، يتعدون على الضعيف، ويشرهون حتى في الرغيف، جهادهم الإخراق بالرئيس، وغزوهم التبن والدريس وحظهم منقام، ولا مروءة لهم والسلام"(٤٥).

دور العامة في الانتفاضات والثورات:

يعتبر العامة هو السواد الأعظم من الشعب وفي التعريف اللغوي هم ضد الخاصة الذين ترتكز عليهم البلاد بل هم عصب الحياة لأنهم يمثلون فئات كثيرة منهم، لكن تحديد فئاتهم كانت تختلف من مرحلة تاريخية إلى أخرى.

ولعلنا في هذا العصر لن نعتبر العامة أراذل الناس وأحطهم، لكن نضم إليهم كثير من الحرفيين وصغار التجار بل أنهم هم جميع رعايا الدولة من المصريين العاملين الذين ارتبطوا

بأدوات الإنتاج والوظائف المدنية لأهل الحكم أو من المصريين العاطلين الذين تحولوا لأسباب ما إلى أعمال الشغب والتسول والاستجداء(٤٦).

لقد برز عامة مصر في العصر المملوكي في الخروج بحركات تمرد وانتفاضات كثيرة كانت لها أسباب كثيرة ومسببات دعت إلى خروجهم، منها أسباب سياسية، واقتصادية.

فإذا أردنا أن نرصد تحركات العامة في المجال السياسي ومشاركتهم في الأحداث الجارية، لرأينا أنهم كانوا يمثلون نبض الشعب ومطالبه – حيث شعروا في داخلهم أن الصراع الدائربين الأمراء المماليك يؤدي في النهاية إلى خسائر كبيرة يتحملونها هم. كما أنهم كانوا يعبرون عن الولاء السياسي لشخصيات دون غيرها.

فإذا نظرنا إلى المرحلة الأخيرة التي تمثل بيت قلاوون، ونعنى بها عصر الناصر محمد الذي وقفوا معه وأيدوه عند سلطنته الثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م، بل وخرجوا يطاردون بيبرس الجاشنكير الذي سلبه السلطة وأوسعوه سباً، وأوشكوا على الفتك به لولا "أنه أشغلهم بشئ من الفضة نثرها لهم، وإلا كان قتل لا محالة" (٤٧)، بل وأخذوا في العدو خلفه وهم يصيحون ويسبونه سباً قبيحاً(٤٨).

معنى ذلك أن العامة عبروا عن رأيهم السياسي في تفضيل حكام على آخرين، وتأكد موقفهم من الأحداث التي تلت وفاة الناصر محمد، وفي عهد أبنائه وأحفاده الذين نجحت الثورات في مصر في خلعهم وتقديم سلاطين جدد ينتمون لعنصر الجركس – كما أوضحنا من قبل.

شارك العامة الأمير برقوق في الصراع الدائر بينه وبين زميله بركة الجوباني على الاستئثار بالسلطنة المملوكية. وكذلك في الثورة التي قام بها أحد أقارب برقوق وهو الأمير إينال

اليوسفي الجركسي الذي نهب بيت برقوق وما في خزائنه "فقصد إلى الإسطبل، فطلع إلى الحراقة، وملك بيت الأمير الكبير برقوق، وقبض على الأمير جركس الخليلي، فمال أصحابه على ما هنالك من العدد والآلات والأموال ينهبوها..."(٤٩).

لم يتوقف إينال عند ذلك، بل حاول جذب أنصار برقوق إليه، لكن عامة أهل مصر آنذاك وقفت موقفاً سياسياً مهماً "حيث لم يشعر إينال، حتى وافاه، وقد تفرق عنه أصحابه في نهب ما وجدوه، وغصت الرميلة تحت القلعة بالعامة، فهموا برجمه"(٥٠). "بل إن برقوق استطاع أن يدخل العامة بمساعدتهم، بل قاموا بضرب أتباع إينال بالعصي والحجارة"(٥١). ولم يقف دورهم عند هذا الحد، بل "وجدناهم يقفون بجانب برقوق، وقاتلوا أصحاب إينال حتى انهزم وعاد إلى بيته"(٥٢).

كانت خطة الأمير برقوق الثانية هي التخلص من بركة وأتباعه من المماليك الأتراك سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصري بينهما في إشعال نار الثورة ضد الفريقين، لذلك بدأ برقوق تحركه منتهزاً فرصة وليمة أعدها بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض على أميرين من أتباع بركة، وذلك لأن الأمير صراى الطويل الرجبي – من إخوة بركة – أبلغ برقوق "بأن الأمير بركة قد اتفق مع جماعته على اغتيالك في وقت صلاة الجمعة"(٥٣). لذلك اشتعلت الحرب بين الطرفين، مما جعل برقوق يستعين بالعامة قائلاً "عليكم ببيت بركة فانهبوه"، فجاء منهم خلق كالجراد المنتشر إلى بيت بركة فنهبوا أخشابه، ورخامه، وهدمت عدة مواضع منه ولم تدع فيه إلا الجدر القائمة"(٥٤). كما مناهم برقوق قائلاً " من قبض على مملوك من مماليك بركة كان له ماله ولنا روحه"(٥٥).

قد وجد العامة والزعر في هذا كله فرصة طيبة للحصول على غنائم في وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية، فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة، كما يتضح أن العامة شاركوا أيضاً بهدف

سياسي وهو أن الأمير برقوق كان يصحب معه السلطان المنصور علي بن شعبان، مما أكسب فرقة برقوق تعاطفاً من جانب المصريين، وهم الذين ساندوا برقوق في الانتصار التام على منافسه بركة[٥٦].

ومن المشاركات السياسية للعامة أنها كانت تفرض شخصيات معينة في مناصب الدولة العليا، وتفرضها على الحكام، مثلما حدث في ٧٨٣هـ/١٣٨١م عندما "خرج هؤلاء العامة، وطالبوا بولاية العجمي الحسبة بدلاً من القائم عليها المدعو "المليجي" وذلك بعد تحركهم وانتفاضتهم واستغاثتهم حتى لبى طلبهم مباشرة في نفس اليوم" [٥٧].

وقف العامة إلى جانب الأمير برقوق الذي تطلع إلى السلطنة بعد وفاة السلطان علي بن شعبان ٧٨٣هـ/١٣٨١م، لكنه آثر التريث، ووافق على تعيين السلطان أمير حاجي على أن يكون هو مدبر المملكة معه، وعمل على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية، واتبع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب [٥٨].

ومع ذلك ورغم المحاولات التي حاول بها برقوق إرضاء عامة الناس إلا أنهم وقفوا ضده وتعاونوا مع منافسه يلبغا الناصري نائب حلب الذي خرج عليه وقرر خلعه بل واستولى على قلعة حلب ووصل الأمر إلى صدام عسكري بين الطرفين هزم فيه برقوق في موقعة تعرف بموقعة دمشق أو معركة الخمسمائة[٥٩].

لذلك شعر عامة مصر أن برقوق يخدعهم، وأنه أساء إلى مماليك السلطان حاجي، لذلك انتفضوا وخرجوا عليه آنذاك خروجاً سطرته لنا المصادر حيث قاموا أولاً بنهب المحال "فتعطلت الأسواق وغصت القاهرة بالزعر، واشتد فسادهم وتلاشت الدولة واضمحل أمرها" [٦٠]. وقد حاول مماليك برقوق التصدي لهؤلاء العامة ، ومنعهم من الانضمام إلى جيش يلبغا

الناصـرى "لكن العامة قاموا برجمهم بالحجارة، فرماهم المماليك بالنشـاب، حتى بدأ أصـحاب السـلطان يتفرقون عنه، وينضـمون إلى يلبغا، وتكاثر الزعر يريدون نهب القاهرة ، لكثرة ما كان فيها من حواصـل الأمراء"، وكان من نتيجة ذلك نجاح برقوق في الحصـول على الأمان لنفسـه من قبل يلبغا وتركه البلاد ، وهنا انتهز هؤلاء العامة الفرصـة للانتقام مما فعله هؤلاء المماليك ، وما حصلوه ، فقاموا "بالنهب في حواصل الإسطبل، فأخذوا منه نحو الألفي إردب من الشعير ومائتي ألف درهم من الفلوس الجدد ، وسائر ما كان فيه، ونهبوا أيضاً ما كان بالميدان من الغنم الضأن وعدتها نحو الألفي رأس، ونهبت طباق المماليك بالقلعة ، واشـتد بأس الزعر.."[٦١] . وتلاشـى أمر الدولة، وبان الذل عليها "جهاراً عياناً"[٦٢].

وكان من نتائج ذلك انفلات الأمن في البلاد، وهروب المسـاجين من سـجونهم "فخرجوا من خزانة شـمايل هاربين، فسـمع أهل حبس الديلم بصـنيعهم فتشـبهوا بهم ، وكذلك أهل حبس الرحبة ، وخرجوا على حمية جملة واحدة"[٦٣].

وهكذا اختل الأمن والأمان في البلاد مما أدى إلى هروب برقوق، في الوقت الذي دخل فيه يلبغا الناصـري هو ومماليكه إلى القاهرة، "ومعهم من الزعر وأراذل العامة عالم عظيم، وحاصـروا الدروب والأزقة ليدخلوا إليها وينهبوها" حتى قرر الناصـري "أن من ينهب شـيئاً فلا يلومن إلا نفسه"[٦٤] .

ولقد رأى العامة أن هروب برقوق، وقدوم يلبغا لم يعد عليهم بالخير حتى أنهم أصـبحوا يلهجون كثيراً بقولهم، راح برقوق وغزلانه، وجاء الناصري وثيرانه"[٦٥].

وهكذا أصبح لهذه المأثورات الشـعبية التي تلفظ بها العامة وقع كبير وتعبير عن شـعور الناس، وأن الأمور لم تتغير بالنسبة لهم رغم ما قدموه من مساعدات ليلبغا في مواجهته لبرقوق.

عانت القاهرة أشد أنواع المعاناة لأن الزعر لم يقتنعوا – كما رأينا – بوجود يلبغا الناصري، الذي رأى هو وزميله منطاش الأشرفي أن الأفضل هو عودة السلطنة إلى بيت قلاوون ، لأن الصراع أصبح محتدماً بين الأتراك والجراكسة، خوفاً من انقلاب يخرج السلطة عما كانت عليه وتصبح في يد هؤلاء الجراكسة، فكان أن استقر الرأي على إعادة الملك الصالح حاجي مرة أخرى إلى السلطنة في العاشر من جمادي الآخرة عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م ، مما يؤكد عدم نجاح الانقلاب الذي كان يدبر له برقوق والجراكسة لانتقال الحكم إليهم ، وكان للعامة فضل في إرجاء هذا الانقلاب(٦٦).

تم تنصيب يلبغا الناصري في منصب الأتابكية، وشغل منطاش منصب أمير مجلس للسلطان أمير حاجي، وفي هذه المرحلة برزت تحركات العامة، لأن يلبغا استخدم معهم سياسة العنف والتهديد التي أدت إلى كراهيتهم له، خاصة وأنه اشتط في تحركاته ومحاولاته المستبدة للبحث عن السلطان برقوق حتى أن هؤلاء العامة عندما نجح الناصري في القبض عليه، "ندموا على ما فعلوه معه، وأخذوا يبكون ويدعون له بالنصر على طول الطريق"(٦٧).

معنى ذلك أن عامة مصر بدءوا آنذاك يتعاطفوا مع الجراكسه ومع برقوق الذي تم سجنه في قلعة الكرك على يد يلبغا(٦٨).

ومع ذلك خدمت الظروف برقوق، وذلك لاحتدام الصراع بين كل من يلبغا ومنطاش، فكان ذلك لصالح برقوق ، رغم أن العامة آنذاك وقفت في هذا الصراع إلى جانب منطاش ، وزاد من حماسهم في الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله "أنا واحد منكم" (٦٩)، "ولهذا أخذوا يتسابقون في جمع النشاب والحجارة من على الأرض وحملها إلى منطاش" ، الذي تمكن من يلبغا ونجح في الوصول للسلطان حاجي يعلن ولاءه له" .

فشلت خطة منطاش في الاستئثار بالسلطة أو في التحريض على قتل برقوق في محبسه بالكرك، في الوقت الذي نجح برقوق بفضل مماليكه في الإنتصار على منطاش، وتمكن من جذب السلطان حاجي والخليفة العباسي إليه، واستقبلت القاهرة برقوق في عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م بعد تنازل حاجي عن الحكم وقام العامة بالالتفاف حول برقوق، وخرجوا في عدد "ما لا يحصيهم إلا الله، وعندهم من الفرح والسرور شئ زائد" (٧٠).

وهكذا وقف العامة إلى جانب السلطة وقاموا بتدعيمها، وكانوا سبباً في نجاح ثورة برقوق، وتغييره للحكم المملوكي شكلاً وموضوعاً، أي من ناحية الشكل الوراثي في بيت قلاوون، وفي تكوين عصب الدولة التي أصبحت تتكون من الجنس الجركسي.

وبذلك يتضح أن العامة لعبوا دوراً كبيراً في تولية برقوق وطوال سلطنته التي استمرت حتى ٨٠١هـ/١٣٩٩م، لأنه لم يكن ليتمكن من إقامة دولة المماليك الجراكسة دون تأييد العامة ومؤازرتهم له، بعد أن تخلى عنه مماليكه.

شارك العامة أيضاً مشاركات سياسية مهمة مع سلاطين هذه الفترة جميعاً، وكان لهم دور في تثبيت البعض والإطاحة بالآخرين، مثلما حدث بعد وفاة السلطان خشقدم ٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١ – ١٤٧٢م، وفي عهد الظاهر يلباي المؤيدي ٨٧٢هـ١٤٦٨م والذي "ضاق الناس به ذرعاً لضعف شخصيته وقلة هيبته" وعدم قدرته على اتخاذ القرار السليم في الوقت المناسب، فقد كان مسلوب الإرادة مع الأمير خاير بك الدوادار "لا يقضى أمراً دون الرجوع إليه" وإذا سئل عن شئ يقول "إيش كنت أنا قل له"(٧١).

أما عن الانتفاضات التي قام بها العامة، وترجع إلى أسباب اقتصادية فقد كانت هي الأغلب والأعم، حيث دأب العامة على الربط بين تدهور الأوضاع الاقتصادية وسوء الأحوال

المعيشية، وشخص السلطان الجالس على العرش ، باعتباره المسئول الأول أمامهم عن مصالح الرعية ، فكان مفهوم الولاء السياسي عندهم مرتبط بالاستقرار النسبي في الأسعار وتوفر السلع الرئيسة في الأسواق [٧٢]. بل كانت هذه العامة تنتظر أية فرصة متاحة أمامها للسلب والنهب لسد رمقها.

وقد رأينا من قبل كيف أن السلطان برقوق قد استعان بالعامة في مصر للوقوف في وجه منافسه يلبغا الناصري، وفي سبيل ذلك أبطل جميع المكوس بإزالة جميع المظالم، لكنه رجع فأعادها، فاضطربت أحوال الناس، مما أدى إلى أن العامة تزايد طغهم وهزؤهم بالدولة، وتناجوا فيما بينهم قائلين "السلطان من عكسه ، عاد في مكسه"[٧٣].

وفي عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، "نودي في القاهرة بالأمان، بعد أن هدأت الاضطرابات من جانب العامة، وكان النداء "ياعوام إن كنتم راضين بمحتسبي القاهرة بمصر، وإلا عزلناهما، فطلع جماعة من الغوغاء إلى تحت القلعة وصاحوا، لا نرضى بهما فرسم السلطان بعزلهما" [٧٤].

وكذلك عندما ارتفعت الأسعار في شهر رمضان ٧٨٣هـ/١٣٨١م في عهد الصالح حاجي بن شعبان، "ووصل سعر إردب القمح إلى أربعين درهما ، وتزايد حتى بلغ في ذي القعدة ستين درهما وعزوجوده" ، قام العامة بالثورة ضد السلطان[٧٥].

وقد وصل الأمر بهؤلاء العامة أن عبروا عن سخطهم برجم أحد المسئولين والمتسببين في معاناتهم، فكانوا يلجئون إلى رجمه بالحجارة من شدة غضبهم وتنفيساً عما بداخلهم من حقد، ففي عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م قاموا "برجم المحتسب ابن البرجي بالحجارة" من شدة بغضهم من طريقته في مباشرة الحسبة، ولغلاء الأسعار الذي صاحب ولايته للحسبة، وكاد ابن البرجي أن يموت لولا أنه هرب إلى بيت أحد الأمراء، وقد اضطر السلطان إلى عزله وتعيين آخر بدلاً منه[٧٦].

وفي عام ٨٢٨هـ/١٤٢٥م تعرضت البلاد لأزمة اقتصادية حيث قل الخبز في الأسواق ، لذلك تحرك العامة لمواجهة محتسب القاهرة بدر الدين محمود العينتابي "فصاحوا عليه واستغاثوا بالأمراء" (٧٧)، لذلك هرب منهم متوجهاً إلى القلعة خوفاً من رجم العامة له ، وتقدم بشكوى إلى السلطان ، الذي بعث بمجموعة من الأمراء إلى باب زويلة لمواجهة العامة ، مما دفع أحدهم إلى رجم واحد من الأمراء ، فأصابه بحجر ، فقام السلطان بالقبض على هذا الرجل، وبعده آخرين من العامة أحضروهم أمام السلطان، فأمر بتوسيطهم "ثم سلمهم إلى الوالي فضربهم وقطع آنافهم" (٧٨).

وفي عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م، "ارتفعت الأسعار بالقاهرة في جميع المواد الغذائية وقد "حكر على الفلفل فلا يباع إلا للسلطان فقط، ولا يشترى إلا منه خاصة" (٧٩).

وفي عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م "تشاءم العامة بالمحتسب وزاد مقتهم له بسبب ارتفاع الأسعار" خاصة أسعار الغلال، ونقصت نقصاً واضحاً من الأسواق، وصار الناس لا يجدون الخبز في الحوانيت، فشعروا بتقصير المحتسب من أداء عمله، وزاد كره الناس له ، بعد أن منع بيع القمح إلا بإذن منه للبائع حتى أنه قام بضرب من اشترى القمح ممن لم يؤذن له في البيع ضرباً مبرحاً وقام بتشهيره بين الناس ، كذلك زاد بغض الناس للمحتسب لأنه اعتقد أنه يشتري القمح لنفسه للاتجار فيه، وكذلك كرهوا من كان السبب من ولايته للحسبة(٨٠).

لذلك تجمعت جماهير العامة تحت القلعة، وأخذوا يصيحون ويستغيثون "وأكثروا الاستغاثة والصياح والشنعة مع السب واللعن والتهديد والتصريح بالعيب". فلما رأوا المحتسب قاموا بسبه وتجريحه بألفاظ قاسية ورجموا بالحجارة يريدون قتله، ولما مر بهم من كان السبب في ولايته للحسبة، التفت العامة حوله ورجموه هو الآخر بالحجارة حتى كاد يهلك، وأنزلوه عن فرسه، وخلعوا عمامته من فوق رأسه، وأخذوا خواتمه، ولما علم السلطان بذلك أمر الوالي أن

يدركهما ويخلصهما من العامة، ومن مماليكه الذين انضموا إلى العامة وشاركوهم في الاعتداء عليهما، واضطر السلطان جقمق أن يعزل المحتسب(٨١).

تدخل عامة مصر لتحسين أوضاعهم الاقتصادية، فثاروا على أحد متولي الحسبة ويدعى المليجي، وطالبوا بخلعه، وتعيين آخر يدعى العجمي بدلاً منه "وكانوا يحملون بغلته وهو عليها بالخلعة" (٨٢).

وفي عصر السلطان الأشرف قايتباي ٨٧٣- ٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م، وقفت العامة في عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م مطالبة السلطان قايتباي بتعيين محتسب لوقف جشع السوقة، وأبلغوه أنهم أخذوا في تصغير وزن الخبز، وزيادة أثمان اللحم والجبن، وغيرها من الأطعمة، فأمر السلطان بطلب الخبز والنظر في أمور المسلمين، فأخذت منه عينات من غالب الحوانيت، وتم فحصها فلما تأكد السلطان من صحة الشكوى أصدر مرسوماً حدد فيه أسعار الأطعمة، وأمر بالنداء في القاهرة بتلك الأسعار(٨٣).

وفي عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م طالبت العامة مرة أخرى بعزل المحتسب القائم وطالبت بتعيين غيره(٨٤).

وفي أثناء الغلاء الشديد الذي وقع بمصر سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م والذي ارتفع فيه سعر القمح ارتفاعا كبيراً كل إردب بستة دنانير، فأقبل الناس على شراء خبز الذرة، ويذكر ابن إياس "أن خبز الذرة لم يظهر في الغلوات المشهورة التي عانت فيها البلاد من قبل، لذلك تهكم العوام من ذلك وصنفوا رقصة يقولون"زويجي زى المسخرة يطعمني خبز الدرة". حتى أنه صار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع(٨٥).

وفي عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م كان لإهمال المحتسب كسباي أن "ارتفعت الأسعار فقام العامة بالثورة، وقدموا شكواهم إلى السلطان، فقبض على المحتسب ووبخه، ثم بطحه بين يديه ليضربه نحواً من عشرين عصاه"(٨٦).

ولعل من أبرز الأسباب الاقتصادية التي أدت إلى انتفاضات العامة، إرهاقهم بالضرائب والمكوس التعسفية في تحصيل الأموال، وكثرة تغيير العملة والتلاعب والتزييف في معاييرها وأوزانها وأسعارها، إلى جانب سياسة الاحتكار والمصادرات، وعدم مراعاة ظروف هؤلاء العامة في أوقات الشدة والأزمات التي انتشرت في هذا العصر، فشعر الناس بالقهر والظلم، وعبر الناس عن ذلك بانتفاضات متوالية.

ففي عام ٨٢١هـ/١٤١٨م، قام عامة أهل المحلة الكبرى من مدن مصر بالانتفاضة ضد واليها، ورجموه بسبب طلب الفلوس(٨٧) التي أصبحت أساس النظام النقدي في مصر أواخر عصر المماليك الجراكسة ، وقام السلاطين الأواخر منذ عهد قايتباي بإغراق الأسواق بكميات كبيرة منها، وتفاوتت أوزانها من قبل السلاطين للتلاعب بأسعار الصرف لتحقيق المكاسب (٨٨).

ولم تكن هذه الأساليب الملتوية التي اتبعتها السلطات المملوكية في إعلان أسعار صرف فلوسها الجدد بخافية عن الناس منذ أن تكبدوا بسببها الخسارة تلو الأخرى، وتذمر العامة من قدرة السلاطين على التمادي في محاولات التلاعب في صرف الفلوس، وكذلك في مقاومة انتشار تزييف العملة التي عرضتهم لكثير من الخسارة (٨٩).

وفي عام ٨٢١هـ/١٤١٨م طلب العامة عزل الوالي "لأنه حمل إلى الغربية مبلغ كبير من الذهب لتؤخذ به الفلوس بسعر مائتين وعشرة للإفرنتي" (٩٠)، مما أدى إلى خسارة كبيرة للناس ،

ونزح عدد كبير من أهل الغربية إلى القاهرة للحصول على الفلوس ، "فانحط سعر الدينار إلى مائة وسبعين لعثرة الفلوس وهوان الذهب" (٩١).

وفي عام ٨٨٦هـ/١٤٨٠م زمن السلطان قايتباي اشتكى إليه عامة القاهرة بعد عودته من الحرب شمال الشام بسبب "الفلوس الجدد وغلو البضائع" التي قام بضربها ناظر الخاص وتحمل اسم السلطان وهي بسعر صرف مرتفع ، في الوقت الذي تم فيه سحب الفلوس العتق من سوق التداول بسعر منخفض مما أدى إلى ارتفاع الأسعار. لكن العامة نجحوا في حمل السلطان على توحيد سعر صرف الفلوس الجدد وكذلك العتق عند ٣٦ درهماً حسابياً لاغياً ما كان يهدف إليه ناظر الخاص من طرح فلوس جدد بسعر صرف يفوق سعر صرف الفلوس العتق(٩٢).

"ولولا قوة العامة في ذلك فقد ثاروا على ناظر الخاص ورجموه، ولولا كاتب السر كانوا قتلوه"(٩٣).

وفي عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، وقفت العامة للسلطان تحت القلعة "وتسيبوا له بسبب الفلوس الجدد، واشتكوا له من أن "البضائع صارت تباع بسعرين سعر الفضة، وسعر الفلوس، وأنه قد وصل صرف الصنف الفضة إلى عشرين من الفلوس الجدد ، وأنه بسبب تلك الفلوس غلقت الأسواق ، وقل وجود الخبز بالدكاكين" (٩٤).

وفي نفس العام اعترضت العامة طريق السلطان "وصاحوا عليه بالكلام المنكى وقالوا له جهارًا الله يهلك من يقصد الغلاء إلى المسلمين فسمع ذلك بأذنه فتنكد في ذلك" وهكذا كان العامة يشتكون للسلطان ويعترضون"(٩٥).

لم يقف الأمر على العامة عند حد التصدي للمتسببين مباشرة في حالة القهر، وإنما تعدى ذلك إلى من أصدروا فتاوى تجيز عمل من الأعمال التي تضربهم ، فقد ثاروا وخرجوا على الشيخ شهاب الدين الششيني القاضي الحنبلي بسبب فتوى أصدرها للسلطان "بحل ما يجبى إليه من أجرة الأملاك عن الشهرين الماضي خبرهما" ، فعندما وصلهم الخبر أقدموا على قتله حتى أنه اختفى عن الأنظار حتى غادر البلاد متجهاً إلى مكة المكرمة [٩٦].

وهكذا كان غلاء الأسعار، واستخدام الفلوس وتزييف العملة، من الأسباب الكبرى للانتفاضات التي قام بها العامة ضد السلطة القائمة حتى أن الولاة هم الآخرين لم يسلموا من هذه المواجهات ، فقد ثار العامة على الوالي الأمير شهاب الدين أحمد بن الزين سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م في عهد برقوق ، وكاد يقتل على أيديهم ، فما كان من السلطان إلا أن تجاوب مع هذه الرغبة الشعبية "فأمر بعزله وضربه بالمقارع ضرباً وألزمه بسداد أربعمائة ألف درهم لخزينة السلطان[٩٧].

وهناك فتنة أخرى شهدتها مدينة دمياط قتل على أثرها الوالي ناصر الدين السلاخوري على يد جماعة من أهل السمناوية ، الذين يتعيشون على صيد السمك ، وقد ساءهم سلوك هذا الوالي ، حتى أنهم قاموا بالقبض على نائبه ، وضربوه وأهانوه حتى كاد أن يموت ، ثم تجمعوا حول باب الوالي الذي اعتصم بداره ، وبدأ في رشقهم بالنشاب حتى قتل أحد الثوار، وجرح ثلاثة منهم ، فثارت ثورتهم، حتى أنه بعد أن نفدت سهامه اضطر إلى إلقاء نفسه في البحر وهرب ، لكنهم تتبعوه في البحر، وتناوبوا في ضربه، واحضروه إلى البلد، ثم حبسوه موثقاً ، "وبعدها شهروه على جمل والمغاني تزفه حتى طافوا به البلد " وبعدها أخرجوا الوالي من الحبس ثم تمكنوا من قتله بعد أن ضربوه وهو عاري البدن بشهادة الشهود "ونهبوا داره وسلبوا حريمه وأولاده ما عليهم، وقتلوا ابنا له في المهد" فكانت فتنة لم يدرك مثلها في معناها[٩٨].

ولقد كان لكثير من السياسات التي اتبعها سلاطين الجراكسة أكبر الأثر على انتفاضات العامة ضدهم، نضيف إليها سياسة المصادرات المتكررة للأموال والبضائع ، وما تعرض له العامة من عدوان وضرب أثناء تلك المصادرات .

كان السلطان خشقدم ٨٦٥ – ٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م يميل إلى جمع المال ويشره في ذلك من أي وجه كان ، واشتط السلطان قايتباي في المصادرات التي أدرت عليه من الأموال ما يعجز عنه الواصفون، بل إن سلطاناً مثل جانبلاط ٩٠٥-٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م الذي لم تتعد فترة حكمه بضعة شهور "أنزل بالناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال" ، وبحلول عهد الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م كانت المصادرات قد أصبحت إحدى الركائز التي اعتمد عليها في إبقاء دولته على قيد الحياة(٩٩).

فنرى أنه في عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م غضب منه العامة في مصر والشام فقد أراد إخراج أوقاف الجوامع والمدارس ، وان يبقى للناس ما يقوم بالشعائر فقط ، وعهد إلى الأتابكي قيت الرجبي بالإشراف على تنفيذ هذه المصادرات التعسفية ، وقاسى الناس أهوالاً أثناء جباية المصادرات منهم ، فقام العامة بإغلاق بعض الجوامع بالقاهرة ومنعوا فيها الخطبة ، ووقفوا تحت القلعة ، واشتكوا للأتابكي بأن قدراتهم المالية لا تتحمل ذلك ، لكنه لم يلتفت إليهم ، فازدادوا ثورة عليه، وأخذوا في رجمه بالحجارة، وكبروا عليه فأصابوه هو ومن معه ، فهاجمت مماليكه العامة ، وجرحوا منهم جماعة ، وقتلوا ثلاثة ، وانتهز الزعر والعبيد تلك الفوضى ، ونهبوا العديد من الدكاكين ، واستمر النهب والقتل في القاهرة، فلما تزايد الأمر قبض والي القاهرة على عدد من الزعر والعبيد وقتل منهم جماعة، وكادت القاهرة أن تخرب عن آخرها مما جرى في هذا الحادث العظيم (١٠٠).

وهكذا نرى مدى مشاركة العامة في الانتفاضات الشعبية ضد السلطة الحاكمة، والوسائل التي اتبعوها في إعلان المعارضة، ومطالبهم وكيفية مواجهة الدولة لهم، ومدى نجاح أو تراجع هذه الحركات ، ليتأكد لنا أن عامة الشعب المصري لم يكن سلبياً ، وإنما عبر بكل وسائله المشروعة والغير مشروعة للإعلان عن غضبه ورفضه.

ثورات القبائل العربية ضد المماليك الجراكسة:

ذخرت مصر بأعداد كبيرة من القبائل العربية استوطنتها منذ العصور الأولى خاصة في المناطق الشرقية من البلاد، وهم من قبائل عدة اعتنقوا الإسلام منذ الفتح الإسلامي، وزادت أعدادهم بصورة كبيرة في العصر الأموي الذي استوطنت فيه قبائل خاصة من عرب الشمال، فأصبحت مصر تزخر بأعداد كبيرة من القبائل التي تأثرت بالتقسيمات الجنسية العامة كعدنان وقحطان ويعرب ومضر، وما تؤدي إليه تلك التقسيمات من تقارب أو تنافر(١٠١).

ولابد من الإشارة أن حركات العربان ضد المماليك رأينا أن نطلق عليها ثورات وليس تمرد لأن زعماء القبائل كانوا يتحركون بدافع إسقاط الحكم من هؤلاء المماليك وتولي السلطة بصفتهم عرباً مسلمون فكان لهذا الواقع العرقي أثر كبير على تحركهم، لذا طفح العصر المملوكي الأول بكثير من ثوراتهم والتي نجح المماليك في قمعها(١٠٢).

وقد اتخذت ثورات العربان أشكالاً كثيرة إما حملات على الولاة المماليك بالصعيد، وإما المشاركة في الحركات المناهضة للسلطة المملوكية، أو حملات خاصة يقومون بها منتهزين فرصة خلو الساحة ومحاولة انتهاز الفرصة للظفر بالحكم.

وقد تركز العربان في مناطق عديدة بمصر أهمها الصعيد، وكذلك البحيرة، والشرقية والفيوم.

ويحدثنا ابن الصيرفي عن هجوم لعربان الصعيد على الأمير قرط المملوكي في عام ٧٨١هـ "وقتلوا من عسكره سبعين فارساً فحاربهم وهزمهم"(١٠٣). كما قام عربان الفيوم في عام ٧٨٥هـ بمساندة بعض الخارجين على الدولة منهم والى قليوب الهارب من الشكاوى المقدمة ضده بسبب ظلمه للرعية وكذلك سلام بن تركية ورجل من رجال الخليفة يدعى إبراهيم بن البان لذلك جهز السلطان أربعة أمراء لمواجهتهم(١٠٤).

هكذا نرى أمثلة لحركات تمرد فقط، لكن هناك ثورات كبرى مثل التي حدثت في عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م عندما اشترك عربان الصعيد مع الأمراء الخارجين عن طاعة الأمير منطاش والمنفيين في قوص بالصعيد، والذين انضم إليهم ولاة الصعيد، وكان هؤلاء الأمراء أكثر من ثلاثين أميراً انضم إليهم مبارك شاه نائب الوجه القبلي الذي جمع عدداً كبيراً من عربان هواره وعرك، لذلك توجهت إليهم تجريدتين عسكريتين لكن هؤلاء المتحالفين نجحوا في الانتصار في البداية إلا أن التجريدة الثانية نجحت في الانتصار على مبارك شاه، وسلم إلى منطاش (١٠٥).

وقد أوضح ابن الصيرفي ما لاقاه العربان الذين تم القبض عليهم في هذه التجريدة والعقوبات التي لاقوها بقوله "حضر المجردون من بلاد الصعيد، ومعهم الذين خرجوا عن الطاعة في قيود حديد وزناجير، فرسم بتفريق جماعة من المماليك فأغرقوا ببحر النيل، وقتل ستة في الجب وأخرجوا من عدة موتى فدفنوا"(١٠٦).

وفي عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م هددت عرش السلطان قلاوون ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابي الذي اشترك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العابد الضاربين حول الكرك بجنوب فلسطين(١٠٧).

ويرجع سبب الثورة إلى أن الشريف جمال الدين أرسل كتاباً إلى موسى بن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالنزول قريباً من القاهرة ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمور لنك ، وجاء في الكتاب أن الشريف العنابي اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة على نواب السلطان برقوق وكشافه في أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد ، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابي الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون في الخطة.

غير أن كتاب الشريف العنابي وقع في يد علي بن الطبلاوي والي القاهرة وقتذاك، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق، الذي أسرع بالقبض على العنابي وشريكه وعذبهما ليقرا على من اشترك معهما في المؤامرة (١٠٨).

تكررت محاولات عربان الصعيد في الخروج على السلطة الحاكمة، فنجد في أحداث سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م في سلطنة برقوق الثانية، نرى الأمير نوروز الحافظي يقمع تمرداً من قبل زعيم الهوارة المدعو علي بن غريب وينتصر عليه ويعود للقاهرة حاملاً إياه "في الحديد وثلاثة وثلاثون رجلاً من أهله وأولاده كذلك"، وبعدها ثم سجن ابن غريب ببرج قلعة الجبل ومن معه ثم سجنهم في حزانة شمائل (١٠٩).

تكررت حركات المعارضة من قبل قبائل الهوارة من بني ابن غريب الذين اتفقوا مع بني الكنز في أسوان عام ٧٩٨هـ/١٣٩٦م، وكذلك عرب الأحامدة، وعندما بلغت الأخبار إلى السلطات المملوكية بعثت إلى نائب الوجه القبلي عمر بن الياس لتجهيز حملة لمواجهة هذه الحركة، لكن لم يتمكن من قمعها "فلم ينل منهم غرضاً ولا ظفر معهم بطائل ولا نائل"(١١٠). وقد تكررت هجمات

الأحامدة حتى أنهم في عام ٨١٨هـ ثاروا على والي قوص وقتلوا كثيراً ممن معه، حتى أن "أرباب الدولة عجزت عنهم"(١١١).

وفي عام ٨٢١هـ/١٤١٨م تحركت بالوجه القبلي حركة معارضة من قبل قبيلة فزاره لذلك قام نائب الوجه القبلي الأمير سودون القاضي "بنهب أموالهم وساق إلى السلطان المؤيد شيخ منها ألف جمل وخمسين فرساً وفر من نجا منهم إلى البحيرة" فتصدى لهم نائب الوجه البحري الأمير دمرداش وقتل منهم أعداداً غفيرة "وحمل إلى السلطان منهم أربع مائة جمل، وعشرين فرساً، ورؤوس رجال كثيرة قد قطعها" (١١٢).

وفي نفس العام حدثت مواجهات مع متمردي عرب الهوارة تصدى لها الأمير فخر الدين "فتبعهم من سيوط مدة خمسة أيام حتى أدركهم قريب أسوان"، وحلت بهم هزيمة كبيرة أجبرتهم على الفرار إلى الواحات "فأحاط بأموالهم، وبعث خمس رؤوس من أعيانهم"(١١٣).

استمر الصراع بين سلطنة المماليك وهوارة الصعيد في نفس هذا العام ٨٢١هـ حيث تجمعوا مرة أخرى لمواجهة نائب الوجه القبلي الأمير سودون الذي شاركه عدد كبير من الأمراء المماليك، وانتهت الحرب بهزيمة ساحقة للهوارة "قتل منهم جماعة حمل منهم عشرون رأساً إلى السلطان" (١١٤).

وبعد مرور أقل من شهر على الصدام مع الهوارة نرى انتصاراً آخر للمماليك على هؤلاء المتمردين عند جرجا "فقتلوا منهم وأسروا نحو الخمسين وفر باقيهم على طريق الواحات"(١١٥).

معنى ذلك أن الهوارة اعتادوا التوجه إلى مناطق نائية يبعدون فيها عن عين السلطة، حتى يجمعوا أمرهم مرة ثانية، ويخرجوا لتحقيق غايتهم الكبرى وهي إسقاط الحكم المملوكي.

وفي عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م زادت حركات الفتن والثورات في الصعيد، ومن هؤلاء قبيلة لهانة الذين شاركوا الهوارة في شن الغارات على البلاد مما أثر تأثيراً كبيراً على الأحوال الاقتصادية في البلاد [١١٦].

كما استمر القتال أيضاً في عام ٨٤٢هـ/١٤٣٢م عندما نجح الأمير يشبك في التصدي للهوارة عند بوتيج "وقاتلهم وهزمهم بعد ما قتل منهم مائة وستين رجلاً". ولعل ما يؤكد لنا تدهور أحوال الصعيد من جراء هذه الحروب وصف المقريزي الذي وضح أن "بلاد الصعيد هزمت ورعيت زروعها، مع ما في أراضيها من الشراقي، وأكل الفأر معظم الزرع، وهدم العرب الدواليب"[١١٧].

لم تتوقف ثورات الهوارة في الفترات الأخيرة التي بدأت فيها أحوال الدولة تتدهور ، لكننا نجد تحركات في عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م في عهد السلطان جقمق حيث قتل من الهوارة "نحو من خمسمائة إنسان وكانت فتنة عظيمة"[١١٨].

وفي عام ٨٦٦هـ/١٤٦٢م، تجددت الفتنة من الهوارة ، وحاول السلطان خشقدم إخمادها، فولى سليمان بن عمر إمرة هوارة ، وأرسل في الوقت نفسه حملة بقيادة الأمير حكم خال السلطان العزيز، ومعه الأمير مغلباي الأشرفي[١١٩].

وفي عام ٨٦٨هـ/١٤٦٤م، جاءت الأخبار بفساد العرب في الوجه القبلي بإقليم البهنسا بالصعيد، فأمر السلطان خشقدم بإرسال تجريده إلى هناك فكانت تتألف من مائتي مملوك من المماليك السلطانية، وعليهم الأمير "تنم الأشرفي الحسيني رأس نوبة ثان ليتوجهوا إلى برد بك هجين وكان قد سافر إلى جهة إقطاعه بالبهنسا من قبل، فرسم السلطان بإقامته هناك إلى أن يأتيه تنم هذا بمن معه فيقيم هناك لقمع الأعراب ، وردعهم عن البلاد والنواحي[١٢٠].

تكرر الصدام مرة أخرى في عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م عندما ثار الهوارة على الأمير يشبك بن مهدي وهزموه هزيمة نكراء، فعندما وصلت الأخبار إلى السلطان خشقدم قام بتعيين أحد المقدمين وهو قايتباي المحمودي ليكون نجدة للأمير يشبك [١٢١]، الذي تمكن من الانتصار على العربان وكسرهم وقبض على ثلاثين من أكابرهم قبل وصول التجريدة المساعدة إليه[١٢٢].

وفي عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلي "وقد نهب البلاد وأسر نساء العربان وأولادهم، كما يذكر أنه حضر معه نحوا من أربعمائة امرأة ، ومات من الجوع عدد كبير، فكان لذلك أكبر الأثر على سلوك عربان الصعيد، حيث قاموا بنهب البلاد وسلب المسافرين[١٢٣].

ولقد تعرضت منطقة الجيزة لهجمات عرب يعرفون بعرب عزالة فقاموا في عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م بنهب "خيول المماليك ، وقتلوا جماعة من الغلمان وأطلقوا من كان بالسجن في الجيزة لذلك "تنكد السلطان لهذا الخبر" وقام بتعيين مجموعة كبيرة من الأمراء للتصدي لهؤلاء ، لكنهم لم يحققوا نجاحاً"[١٢٤].

وفي عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م هرب زعيم الهوارة الأمير أحمد بن عمر الهواري ، فكان من الأمور الغريبة أن قام السلطان بتعيين الأمير يشبك الدوادار أميراً على هوارة بدلاً من أميرهم الهارب [١٢٥].

وقد قام الأمير يشبك بالقبض على أحد أقطاب الهوارة ويدعى علي يونس بن عمر الهواري عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م بعد أن تتبعه إلى بلاد النوبة، وبعدها حز رأسه وقبض على أخيه وأقاربه، وحقق نصراً عظيماً على بن عمر لأن يونس كان يعتبر أمير عربان هوارة [١٢٦].

وفي عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م قام السلطان بتعيين علي داود بن سليمان من أولاد بني عمر أميراً على عربان هوارة، وجعله أميراً على الوجه القبلي ببلاد الصعيد(١٢٧).

وفي عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، تكررت فتن الهوارة بين حميد بن عمر أمير هوارة أخو داود أمير الهوارة السابق (١٢٨).

ثورات العربان في الوجه البحري:

تعددت المناطق التي أقام بها العربان من مناطق الوجه البحري، ونخص منها البحيرة والشرقية والغربية. لذلك عملت السلطنة المملوكية على إرسال التجاريد البحرية لمواجهة هؤلاء الثوار الذين لم يقلوا ضراوة ومطامع عن عرب الصعيد، لكن الواضح أن مناطق الوجه البحري زاد التمرد فيها بعد أن بدأ ينحسر في الصعيد ، حيث لم تصادفنا أخباراً عنهم إلا من عام ٨١٨هـ/١٤١٥م منذ عهد المؤيد شيخ ٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م ، وقد سجلت حركات الخروج عن الطاعة من قبل العربان "في عامة أرض مصر قبليها وبحريها" (١٢٩)، فقد كانوا يعتدون على المسافرين براً وبحراً ، ويقتلون الناس حتى أن السلطات المملوكية لم تتمكن من تحصيل الأموال والغلال من هذه المناطق "من قلة مهابة العربان للسلطنة ، وقوة تجرئهم"(١٣٠).

وقد أكثر عربان البحيرة الثورات في عهد السلطان خشقدم، فقد جاءت الأخبار بأن عرب لبيد شنوا غارات كثيرة هناك ، "فأرسل إليهم السلطان عدة تجاريد لكنها لم تفلح في مهمتها" (١٣١).

تكررت التجاريد العسكرية على البحيرة حيث خرجت في عام ٨٦٦هـ/١٤٦٢م واحدة ضمت عدداً من الأمراء المقدمين مثل قرقماس الجلب وبرد بك هجين، ويشبك الفقيه، كذلك أمراء طبلخانات، وأمراء عشرات إلى جانب الجنود (١٣٢). وبما أنهم لم يحققوا نصراً كبيراً على

عربان البحيرة، لذلك تكررت الحملات في العام التالي ٨٦٧هـ/١٤٦٣م بزعامة الأمير جاني بك، والأمير قايتباي المحمودي، وغيرهم لكنهم لم يحققوا هدفهم(١٣٣).

تكررت التجاريد العسكرية طوال عصر خشقدم لهدف واحد في البحيرة وهو قمع فتن وخروج عربان لبيد، واستمر الأمر بعد ذلك ، ففي عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م توجه إليهم الأتابكي أزبك "بسبب فساد العربان " ، "فأقام فيها مدة ثم عاد"(١٣٤).

وفي عام ٨٧٥هـ/١٤٧١م بعث الأمير يشبك جن من البحيرة يطلب نجدة من السلطان لمواجهة عربان لبيد، فعين له السلطان الأتابكي أوزبك ومعه عدد من الأمراء الجند ، فخرج إلى البحيرة(١٣٥).

كما توجه الأمير يزبك في عام ٨٧٧هـ/١٤٧٣م إلى البحيرة وحقق نصراً وحمل معه إلى القاهرة عند عودته ٨٧٨هـ "جماعة من العربان المفسدين تم سجنهم بسجن المقشرة"(١٣٦).

وفي عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م تزعم عربان البحيرة محمد الجويلي، لذلك بعث إليهم السلطان تجريده على رأسها قرقماس المعلم، وأسنباي المبشر وأزبك قفص وماماي ونحو مائتين من المماليك السلطانية، وهناك التحموا مع قوات الجويلي، "مما أدى إلى مقتل عدد كبير من العرب والترك، ولم يحقق المماليك شيئاً"(١٣٧).

وفي عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م استمرت الفتن بين بني حرام، وبني وائل حتى أن جانبردي الكاشف أعياه أمرهما، لذلك أرسل السلطان تجريده إليه لمساعدته "لكنهم لم يحققوا نصراً" (١٣٨).

وفي عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨م عاود الجويلي ومرعي زعماء العرب بالبحيرة حركة الانشقاق مرة أخرى "ونهبوا لبلاد وأسروا لنساء وقتلوا الأطفال وأقسم الجويلي على الامتناع عن دفع خراج

منطقة الغربية كلها، لذلك خاف عسكر السلطان جميعهم من الخروج لمواجهة هذه الثورة. خاصة وأنه كان وقت الفيضان الذي يتعذر فيه الخروج للحرب [١٣٩].

قرر السلطان محمد بن قايتباي في عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م أن يأمر أحد الأمراء للخروج إلى البحيرة فعين الأمير طومان باي، لكن كان قتل السلطان آنذاك سببًا في توقف وصول التجريده إلى البحيرة [١٤٠].

وفي نفس العام ، لكن بعد مقتل محمد بن قايتباي وتولى الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه الغورى ، ثار عرب عزالة على كاشف البحيرة، فتصدى لهم حتى أنهم وصلوا إلى شبرا وتوجهوا من خلف الجبل الأحمر ، فبعث السلطان تجريده بقيادة أمير مجلس ، فالتقوا مع عرب عزاله عند المعصرة بالقرب من طره ، انتصر فيها العرب على العساكر المملوكية ، الذين قتل منهم نحو خمسين مملوكاً ، ومثلهم من الغلمان والعبيد ، وقتلوا وجرحوا الكثيرين ثم هربوا إلى الصعيد، لذلك دعا السلطان الجيش للخروج للتصدي لهم عند المعيصرة ، وعندما وصلوا كان العرب قد هربوا ، ويرجع ابن إياس هذه الهزيمة إلى أن الترك استخفوا بالعرب ، لذلك كانت على حد قوله "من الحوادث المهولة"[١٤١].

وفي عهد السلطان الغوري وفي عام ٩١٨هـ/١٥١٢م تحالفت سبع طوائف من العربان ، مما كبد البلاد أخطاراً كبيرة هددت الجبهة الداخلية ، فكانت من عوامل الهدم التي سهلت سقوط البلاد فيما بعد على يد العثمانيين .

عربان الشرقية:

وفي عام ٨٧٥ هـ/١٤٧٠م، خلع السلطان علي شيخ عربان الشرقية بقربن بقروقرره في مشيخة الشرقية عوضاً عن قريبه ابن عيسى بن بقر الذي سجن بالمقشرة بعد ما ضرب بين يدي السلطان ضرباً مبرحاً [١٤٢].

كما قام السلطان بتعيين الأمير عتر حاجب الحجاب والأمير قانصوه الحسيب الإينالي بأن يخرجا إلى الشرقية بسبب فساد العربان ورسم لهما السلطان بأن من وجدوه من بني سعد وبني وائل يقبضوا عليه (١٤٣).

وفي العام التالي ٨٧٦هـ/١٤٧١م عاد الأمير عتر من الشرقية بعد أن نفذ أوامر السلطان وقبض على جماعة من العربان المفسدين وفيهم موسى بن عمران وآخر يقال له أبو طاحن وهو من أعيان العربان المفسدين لذلك أمر السلطان بتوقيع عقوبة التوسيط على موسى ومعه بعض من بني سعد وبني حرام وبني وائل ، وعندما وصلت الأنباء إلى أهلهم بالشرقية "أظهروا العصيان وأفسدوا في البلاد" مما دفع السلطان إلى إعادة الأمير تمر الحاجب إلى هناك مرة أخرى(١٤٤).

لم تكن مشاكل الصراع مع عربان الشرقية تقف عند حد إرسال التجاريد ولكن كان فساد هؤلاء العربان سبباً في "امتناع مرور الناس من الأسفار إلى الشرقية من كثرة القتل ، وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين" وذلك كما حدث في عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م عندما اشتعلت الفتنة بين بني حرام وبني وائل (١٤٥)، مما دفع السلطان إلى إرسال تجريده إليهم على رأسها الأتابكي أزبك وجاني بك قلقسيز أمير سلاح ، وأزدمر الطويل أحد مقدمين الألوف وقانصوه الخشيف الإينالي أحد مقدمين الألوف وبصحبتهم عدد كبير من الجنود ، حيث توجهوا إلى الشرقية لمواجهة قبيلتي بني وائل وبني حرام اللتان هجمتا على القاهرة ووصلتا إلى حي الحسينية وتمادوا بأنهم قاموا "بنهب الدكاكين وسلبوا أثواب الناس" لذلك توجهت الحملة إلى مراكزهم ونجحت في تحقيق الانتصار وعاد الأمير أزبك ومعه بعض العربان صدرت ضدهم عقوبات منها السجن في المقشرة ، وبقي بعض الأفراد بالشرقية لحفظ الأمن بها(١٤٦).

وفي عام ٨٨٣هـ قام السلطان بإعادة علي محمد بن عجلان إلى مشيخة العرب بالشرقية بعد حبسه بالقلعة عشر سنتين [١٤٧].

وقد تكررت الحملات ضد عرب الشرقية في عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م لأن عربان الغربية والصعيد انضموا إليهم، وكادوا يحققون أغراضهم مما دفع السلطان الغوري إلى تجهيز جيش ضخم للتصدي لهم، إلا أنه لاقى هزيمة مما دفع السلطان إلى زيادة التعزيزات وكذلك تشديد عمليات الانتقام من العرب حتى أنهم "صاروا يقطعون رؤوس شبان العرب ويرسلونها للقاهرة" ، وبلغ عدد من قتلوا "زيادة على ألفي إنسان" مما أدى إلى هدوء حركات العربان في كل من الشرقية والغربية[١٤٨].

وهكذا نرى أن ثورات العربان ضد السلطنة المملوكية الثانية كانت ثورات شديدة، وانتفاضات وتمرد ، ورفض للحكم القائم واستخدموا في ذلك كل أنواع التصدي للسلطة من قتل وسلب ونهب وإتلاف ، ومعارضة وتعطيل طرق ، واستقلال وقتي عن السلطة وظل الحال على ذلك حتى كان سقوط الدولة نهائياً على يد العثمانيين فلم ينج من شدة البطش العربان ولا المماليك .

المماليك الجلبان:

هم المماليك المشتروات التابعون للسلطان الحاكم، وهو لفظ متأخر زمنياً بعض الشئ عن قيام دولة المماليك الأولى، وقد عم استخدامه في الدولة الجركسية [١٤٩].

والمعروف أن يلبغا الخاصكي استكثر منهم وبالغ في الإحسان إليهم، وكانوا يخرجون معه في موكب خاص، ومن أبرز هؤلاء الجلبان كان السلطان برقوق الذي نجح في الإطاحة بالدولة المملوكية الأولى ، وقد ظل من جملة مماليك يلبغا إلى أن قتل ووقعت "واقعة الأجلاب وشتتوهم

شذرمذر" [١٥٠]، وبعدها سجن برقوق بالكرك حتى احتاج السلطان الملك الأشرف شعبان إلى مماليك يلبغا فطلبهم فقدم برقوق.

والواقع أن هناك فرق كبير بين طبيعة وثقافة المماليك البحرية في العصر الأول ، وبين هؤلاء الجلبان المشتروات ، الذين اختلفوا تماماً في التدريبات والتعليم والثقافة الحربية والدينية ، وأصبح كل منهم يتحيز لجنسه ووطنه ، كما أنهم اختلطوا بالناس ، ولم يسكنوا الطباق كما كان الأوائل لذلك تفشت بينهم سلوكيات وأصبح لهم مطالب كثيرة عبر عنها أبو المحاسن بن تغري بردي في مقارنة بينهم وبين المماليك الأوائل قائلاً "وأعجب من هذا كله أن أولئك "البحرية" كانوا على حظ وافر من الأدب والحشمة والتواضع مع الأكابر وإظهار الناموس ، وعدم الازدراء بمن هو دونهم ، وهؤلاء "الجراكسة" ، إست في الماء وأنف في السماء، لا يهتدي أحدهم لمسك لجام الفرس وان تكلم تكلم بنفس ، ليس لهم ضاعة إلا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ، ويشرهون حتى في الرغيف ، جهادهم الإحراق بالرئيس ، وغزوهم في التبن والدريس ، وخطهم منقام ، ولا مروءة لهم والسلام"[١٥١].

والحقيقة التي لابد لها أن تتضح الآن أن نسير وراء انتفاضات هؤلاء الجلبان في هذا العصر، ومن خلالها تتضح الأسباب التي دعتهم إلى ذلك، ونصل منها إلى النتائج التي ترتبت عليها.

ولعل المصادر قد سطرت لنا كثيراً من هذه الانتفاضات والتي سنقدمها في ترتيب زمني دون النظر إلى اختلاف الأسباب، ففي عصر الأشرف برسباي يتأكد "أنه اشتد فساد المماليك الجلب وكثر عبثهم وعبثهم بالناس وأخذوا ما قدروا عليه من مال وحريم"[١٥٢]، والواضح أنه كان ذلك من جراء ارتفاع الأسعار لأنه يشير بعدها لارتفاع أسعار القمح والشعير، وكذلك طلب زيادة الجوامك.

وتكراراً لما حدث وفي نفس العام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م هاجم الجلبان بيت الوزير كريم الدين بن كاتب المناخ ونهبوه وذلك "لأنه انقطع عنهم اللحم المرتب لهم يوماً أو يومين" (١٥٣).

قام الجلبان بانتفاضة أخرى في نفس العام نتيجة صراع بينهم وبين بعض المماليك السلطانية الخاصة بالأمير جارقطلو، حتى أن الجلبان اجتمعوا تحت القلعة مما دفع الأمير إلى الاعتصام بداره وعدم الحركة ولم يتوقف الجلبان عن حركتهم إلا بعد تدخل السلطان وقبض على مماليك الأمير "وضربهم وسجنهم لأنهم أصل الفتنة"(١٥٤).

وقد حاول السلطان استرضاء الجلبان بزيادة جوامكهم "حتى سكن الشر وأخذوا النفقة جميعا"(١٥٥). ومع ذلك ازداد خروجهم على السلطة وكثر أذاهم للناس ، "وأخذوا ما قدروا عليه من مال وحريم"(١٥٦).

لذلك نجد أن تأخر الرواتب عن هؤلاء المماليك أثارت حفيظتهم كثيراً وهى التي حركت نفوسهم للانتفاضة على السلطة، ففي عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م تسجل لنا المصادر هجومهم على بيت الصاحب كريم الدين "ابن كاتب المناخ" للفتك به، لكنهم فشلوا، والغريب أن هذا الهجوم الشديد كان بسبب "تأخر الجامكية يوماً واحداً" حتى أنه قرر أن يستقيل من وظيفة الإستادارية التي كان يشغلها (١٥٧).

وشهد عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣ م وثبة للجلبان على المباشرين الذين هربوا منهم وذلك أيضاً لتأخر الجوامك "فتتبعهم الأجلاب وهاجموا دورهم"(١٥٨). وكان منهم الأستادار الذي حصل من السلطان على "عليق المماليك شهراً ، وبطل الشر، وأطمأن المباشرون بذلك وأمنوا(١٥٩)"

وقد صحبت حركات الجلبان وخروجهم كثير من الأمور التي أثرت على المجتمع وتعتبر من السلوكيات الشائنة كأن يقوموا بالتجمع والتوجه إلى "متفرجات القاهرة فينهبون بضائع

الناس ويخطفون عمائمهم ويفسدون في حريمهم"[١٦٠]. مثلما حدث عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م حتى أن مقدم المماليك أصدر أوامره من منعهم من النزول من الطباق إلى القاهرة[١٦١].

ومن شاكلة هذه السلوكيات ما حدث سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م من قيامهم بنهب الدار التي نزل بها رسول "قاصد" شاه رخ بن تيمورلنك ، والذي عمل السلطان الظاهر جقمق على التودد إليه لإنهاء حالة العداء بين المغول والمماليك حتى أنهم نهبوا من الدار"نحواً من عشرة آلاف دينار" [١٦٢]. وقد أمر السلطان بمحاولة القبض على هؤلاء الجلبان لرد النهب ، فاستعادوا جزءاً منها كان "ما بين خيول وقماش وسلاح وذهب"[١٦٣].

ووصلت ثورات الجلبان إلى حد قيامهم بالاعتداء على موظفي الدولة ، فنجدهم يقومون في عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م في عهد السلطان جقمق أيضاً بالثورة على الأستادار زين الدين يحيى "فضربوه بالدبابيس ضرباً مبرحاً حتى كاد أن يهلك"[١٦٤].

وتكرر نفس هذا السلوك مع الأستادار ابن أبي الفرج عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م حيث قاموا بنهب داره عن آخره، واختفى هو ثم توجه للسلطان يطلب إعفاءه من منصبه[١٦٥].

ولقد كان للمطالب الاقتصادية لهؤلاء الجلبان دور كبير في هذا السلوك الشائن ضد الدولة ، والذي يؤكد أن انتفاضاتهم هذه كانت معول هدم ينذر بنهاية مفجعة. فلقد كان لندرة الشعير في البلاد أن قام هؤلاء الجلبان في سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م في عهد السلطان إينال العلائي بنهب شون الأمراء "وصاروا ينزلون الفقهاء والمباشرين من على خيولهم وبغالهم" ، وهاجموا الأسواق "فكانوا يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع"[١٦٦].

كما كان لقلة الأنصبة التي توزع على الجنود من اللحوم أن قام المماليك بالثورة عام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م في عهد السلطان إينال أيضاً على ناظر الخاص يوسف وأخذوا عمامته من على

رأسه وصار مكشوف الرأس [١٦٧]. كما "قاموا في شهر رمضان من نفس العام بنهب حواصل البطيخ الصيفي وسائر البضائع ، حتى امتنع السوقه من البيع وارتفع سعر كل شئ من المأكول"[١٦٨].

ولم يكتف المماليك الجلبان بهذه الانتفاضات السيئة ومواجهتهم لرجال الدولة، لكن تعدى ذلك إلى تطاولهم على السلطان نفسه بسبب الجوامك والمخصصات التي يطلبون زيادتها، ففي عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م ثار المماليك الجلبان بالقلعة على السلطان إينال الذي كان متواجداً بالدهيشة[*] مما دفعه إلى القدوم إليهم ليستطلع الأمر، فهموا بالهجوم عليه، وعندما تأكدوا من وصوله "رجموه بالحجارة" فهرب من أمامهم مسرعاً حتى "وقع أحد نعليه من رجله، فسار حافياً ، وأصابته طوبة في ظهره، فهرب السلطان من أمامهم إلى الدهيشة ، فأغلقوا عليه الباب، وظل الحال حتى بعد العصر، ولم تحل المشكلة إلا بعد أن ترددت الرسل بينه وبينهم واتفقوا على أن "يزاد لهم ألفي درهم في الكسوة فصارت من يومئذ ثلاثة آلاف درهم لكل مملوك ، وزاد لهم في الأضحية رأساً من الغنم في كل سنة" وكان سلوكهم هذا في نظر ابن إياس "أنها ما وقعت من مماليك السلاطين قبلهم قط"[١٦٩].

وقد تكرر نفس الموقف في نهاية عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م حيث منعوا الأمراء من الصعود إلى القلعة إلا بعد أن تنفذ مطالبهم وهي "زيادة رأس غنم في كل سنة" فاضطر السلطان للموافقة حتى تهدأ الفتنة[١٧٠].

طالب الجلبان بزيادة جوامكهم عام ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م وعبروا عن ذلك بثورة على الأستادار زين الدين "وضربوه بالدبابيس ضرباً مؤلماً حتى كاد أن يهلك" [١٧١]، لكنه عجز عن تلبية مطلبهم "لذلك صار الطعن عمال والمماليك في غاية الأذى للناس"[١٧٢].

وفي عهد السلطان خشقدم ٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م عمل على إرضاء الجلبان ليتجنب الثورات التي حدثت في عهد سلفه السلطان إينال ، لذلك قام بتفريق نفقة البيعة عليهم عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م وقد بلغ قدرها ما يزيد عن خمسمائة ألف دينار لاسترضائهم، ومع ذلك استمروا في طلب العطايا، حتى أنه وزع عليهم الاقطاعات وأكثرها إقطاعات السلطان إينال(١٧٣) . ومع ذلك ظلوا يطالبون بالزيادة في النفقة والاقطاعات وغيرها.

وفي سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م ثار المماليك أول ثورة لهم في عهد خشقدم "ومنعوا الناس من الطلوع إلى القلعة، وضربوا مقدم المماليك الأمير جوهر ، وهجموا على نائب القلعة سودون القصروي لكي يضربوه أيضاً(١٧٤).

وفي عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م كانت ثورة للجلبان على أهل البلاد من أصحاب الدكاكين بمصر العتيقة ، "فنهبوا الدكاكين التي بها عن آخرهم ، وما أبقوا في ذلك ممكن" وذلك بسبب قتل واحد منهم على يد حارس في مصر القديمة(١٧٥).

وقد تجرأ المماليك في خروجهم وفى السلطة على شخص السلطان خشقدم نفسه بسب طلبهم أثواب صوف يرتدونها أثناء خروجهم بصحبته في العيد، حتى قاموا بالوثوب عليه بالقلعة عام ٨٧٠هـ/١٤٧٥م ولم يتوقفوا حتى أرضاهم(١٧٦).

واستمرت اعتداءات الجلبان وانتفاضاتهم الهدامة حتى أنهم في عام ٨٧٠هـ/١٤٦٥م قاموا بالاعتداء على الناس في المولد النبوي واستغلوا ازدحام الناس وقاموا بالسلب والنهب والاعتداء عليهم(١٧٧).

ولم يتورع الجلبان عن التعرض للناس بالأذى في مناسبة من أجل المناسبات وهي دوران المحمل فقاموا بالخطف والنهب في الوقت الذي أحرق السلطان نفطاً بالرميلة فطارت

بعض الصواريخ على القلعة فأحرقت سقف الإصطبل فاشتعلت فيه النار لمدة ساعة. والغريب أن الناس من كراهيتهم للسلطان الحاكم "تفاءلوا خيراً عندما اشتعلت النار بزوال السلطان عن قريب"(١٧٨). وهذا يعكس لنا الشعور الشعبي تجاه السلطة الحاكمة.

ومن القضايا التي شكلت تحركات للمماليك الجلبان ، الصراعات التي كانت تدور بين موظفي السلطنة مثلما حدث في عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧ م عندما تشاجر خاير بك الدوادار مع كسباي بك الدوادار الثاني فتعصب لكل منهما مماليكه الجلبان حتى أن مماليك خاير بك ثاروا على كسباي وقبضوا عليه وعلى مجموعة من مماليكه، ووصل بهم الأمر إلى حد ضربه وسجنه في مكان بالقصر، مما أشعل الصراع حتى أنهم "لبسوا آلة الحرب" التي اشتعلت بتحريض من خاير بك ووصلت إلى حد الهجوم على السلطان الظاهر تمربغا نفسه سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧-١٤٦٨م وقبضوا عليه وحبسوه رغبة في أن يتولى خاير بك السلطنة، وفعلاً ألبسوه شعارها وتلقب بالعادل، وكانت كل هذه الأمور قد تمت في المساء، وما أن بزغ الصباح بنوره تغيرت الأمور عليه، إذ قام الأتابكي قايتباي بجمع مماليكه الجلبان الذين نجحوا في جذب أتباع خاير بك إليه وقالوا له "لا تمربغا ولا خاير بك ، أنت تكون سلطاناً" ، وفعلاً صعد قايتباي القلعة تحيط به المماليك الجلبان من الظاهرية ، والأشرفية والاينالية ، وتم القبض على تمربغا السلطان السابق وعلى خاير بك. وهو الذي يقال عنه "كلام الليل يمحوه النهار" ، لأنه كان سلطان ليلة واحدة (١٧٩).

وفي عهد الأشرف قايتباي ٨٧٣-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م تكررت هجمات الجلبان منها ما كان في عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢ م ، وكذلك في عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣ م عندما قاموا بالثورة على السلطان قايتباي في القلعة ، ووصل بهم الأمر إلى حد منعهم الأمراء من الصعود وكانوا يهدفون "قتل جماعة من خواص السلطان"(١٨٠)، وهذا يوضح مدى تطاولهم على السلطة الحاكمة وتجرؤهم عليها، بل وعلى رجال السلطنة وموظفيها.

عاود الجلبان التحرش برجال السلطان وكانوا تحت زعامة واحد منهم يدعى علي باي الخشن ومنعوهم من الوصول إلى القلعة وهم من "الأمراء والمباشرين" ، لذلك قرر السلطان القبض على علي باي "وضربه نحواً من ألف عصاه ونفاه إلى الشام"(١٨١).

ومن أبرز حركات التمرد التي قام بها الجلبان في نفس هذا العام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م ، هجومهم على منطقة بولاق بالقاهرة " فنهبوها ثم توجهوا إلى شون الأمير يشبك الدوادار وفعلوا بها مثل ذلك وبدءوا في الاستيلاء على جمال السقايين وحملوها بالشعير، ولم يتمكن السلطان من السيطرة على الموقف (١٨٢)، ولعل هذا يؤكد أن التجار كانوا يحتكرون الشعير الذي لم يتوفر بالأسواق، فلذلك فتحت الشون وتم نهبها .

ومع ذلك وفي نفس العام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م نجح قايتباي في قمع فتنة للأجلاب الذين عملوا على قتل الأمير يشبك الدوادار، الذي هرب منهم إلى الجيزة وكان لما قام به الجلبان أن امتنع الأمراء عن الصعود للقلعة لمقابلة السلطان الذي قرر عدم الصلح مع المماليك إلا إذا سلموا إليه مدبر هذه الفتنة المدعو الأقطش وهو من الجلبان وقرر توسيطه، لكنه تراجع وجعلها ضربه"فوق الألف عصاه وسجنه" بعد شفاعة الأمراء فيه (١٨٣).

وقد تكرر في العام التالي ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م خروج الجلبان على الأمير يشبك الدوادار"حتى اضطربت الأحوال وماجت القاهرة، وغلقت الأسواق. ولم تهدأ الفتنة إلا بعد الوساطة بأن يعتذر الجلبان للأمير يشبك (١٨٤).

وفي عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م ثار الجلبان بالقلعة وتقارعوا بالسيوف حتى غضب منهم السلطان وترك مكانه بالقلعة متوجهاً إلى مدينة شطنوف مما دفع الجلبان إلى شراء خاطره ومصالحته ليعود إلى مقر السلطنة(١٨٥).

لم تتوقف ثورات المماليك الجلبان في عهد قايتباي بل تحركوا عام٨٨٧هـ/١٤٨٢م في القلعة راغبين في قتل مقدم المماليك ، وعندما هرب بدءوا في أعمال التخريب "فأحرقوا باب الزردخاناه" (١٨٦). وهذا يؤكد أن الجلبان اعتادوا في ثوراتهم وتمردهم القيام بأعمال تخريب كبيرة تمس أهم المواقع مثل ما حدث هنا في خزانة السلاح.

لقد كان لندرة البضائع في الأسواق ، وكذلك احتكار كثير من الحبوب مثل القمح والشعير أكبر الأثر في تزايد ثورات الجلبان من أجل الحصول على احتياجاتهم أو منع احتكار البضائع ، فنرى في عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م أنهم قاموا بثورة ضد محتسب القاهرة آنذاك بدر الدين بن مزهر "فحرقوا بيته بسبب تسعير البضائع من اللحم والخبز والجبن" وبعدها هاجموا الشون التي تخزن بها البضائع وكسروا أبوابها ونهبوا منها القمح والشعير، ولم يفلح معهم تدخل الأمراء ، مما دفع السلطان إلى التوجه بنفسه إلى بولاق ففروا من وجهه لكنهم استمروا في عمليات السلب والنهب حتى أن المحتسب طلب أن يعفى من منصبه(١٨٧).

والواضح أن السلطان قايتباي فكر في الهروب من منصبه من كثرة ثورات الجلبان حتى أنه في عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م رغم مصالحته لهم فقد عاودا القيام بالفتن حتى أشيع بين الناس أن "السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ولا يعلم أين يتوجه"(١٨٨).

ويعلق ابن إياس على الأوضاع في مصر آنذاك أن "الأسعار مرتفعة في سائر البضائع، والإشاعة قائمة برجوع عسكر ابن عثمان وزحفهم على البلاد الحلبية، والإشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان ، والأحوال واقفة، والسلطان ناظر إلى الظلم ، وأخذ أموال الناس ، والأمر إلى الله" (١٨٩).

وفي عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م قام الجلبان بثورة كبيرة في أواخر عهد السلطان قايتباي الذي كبر في السن واستبد به الضعف والمرض، وكان الأمير قانصوه خمسمائة آنذاك هو الأتابك الذي هيمن على الأمور، لذلك كان وجهة للجلبان الذين هاجموا داره التي بناها على الخليج الحاكمى ونهبوا ما فيها وأحرقوا بعض أماكن بها(١٩٠).

وقد كرر الجلبان هجومهم في عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م وفي هذه المرة كانوا مماليك قانصوه خمسمائة، فقاموا بمهاجمة دار آقبردى الدوادار وأحرقوا ربعه، وحاصروا بيته ، واللافت للنظر أن هؤلاء الجلبان تجرءوا على شخص السلطان قايتباي المريض الذي نزل وجلس عند باب السلسلة عند سوق الخيل حتى يتراجع المماليك عندما يجدوه ، لكن حدث العكس أنهم كانوا عازمين على الاعتداء عليه بأن "ينبشوا السلطان وهو راقد على الدكة"(١٩١). حتى أنه عندما انتقل من مكانه وجد "ثلاثة أسهم نشاب في المخدة التي ينام عليها"(١٩٢).

وقد تدخل المماليك الجلبان في الصراع السياسي الدائر بين الناصر محمد بن قايتباي وبين قانصوه خمسمائة الذي عمل على خلع الناصر من السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م ونجح جلبان الناصر في الانتصار على خمسمائة حتى اضطر للهرب بعد أن كان قد بايعه الخليفة العباسي ولقبه بالأشرف قانصوه (١٩٣)، فما كان من الجلبان اتباع الناصر بن قايتباي إلا أن قاموا بالنزول من القلعة إلى باب السلسلة "ونهبوا كل ما كان فيه من سلاح وقماش ، ونهبوا طستخانات الأمراء والخليفة، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم(١٩٤)، ولعل هذا يوضح مدى الفوضى التي أصبحت فيها البلاد، وانحطاط مقام السلطنة والخلافة والإمارة.

وفي عهد السلطان الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م نرى كثيراً من الثورات للجلبان والتي أدت إلى تدهور الأحوال الداخلية في مصر مع ما كانت تعانيه من معاول هدم أخرى.

كثرت الفتن التي أثارها الجلبان ضده من أجل تأخر نفقاتهم وكانوا في مرات كثيرة يلبسون الأسلحة ويرغبون في قتال السلطان نفسه ، وقد تكرر ذلك منهم في معظم سنوات حكم الغوري ، مما سبب له قلقاً شديداً ، وزاد من حالة عدم الاستقرار في البلاد ، وانعدام الأمن بها خاصة وقد صاحب هذه الفتن كثرة تعدي الجلبان على الناس وشغبهم في الأسواق .

لم يكف الجلبان في عهد السلطان الغوري عن المطالبة بالاقطاعات فاضطر الغوري في سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م - كي يرضيهم - إلى إخراج اقطاعات أولاد الناس وتفريعها عليهم حتى أن الجلبان كانوا "يأخذون منهم مناشيرهم ويبهدلونهم بالضرب" [١٩٥]. وقد قام الجلبان بقتل المماليك القرانصة – كبار السن – للحصول على اقطاعاتهم بعد موتهم ، ففي سنة ٩١٢هـ/١٥٠٧م قتل ثلاثة من المماليك الجلبان أحد المماليك القرانصة الكبار[١٩٦].

وقد تزايدت اعتداءات المماليك الجلبان على الأسواق والتجار أثناء الفتن والقلاقل التي امتلأ بها عصره. ويعتبر ما حدث في عام ٩١٦هـ/١٥١٠م عندما ثار الجلبان ونزلوا من القلعة ، وتوجهوا إلى سوق أحمد بن طولون فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين الصليبة ، ثم توجهوا إلى سوق تحت الربع فنهبوا منه عدة دكاكين... وقد نهب للناس أشياء كثيرة بنحو عشرين ألف دينار. وكانت ليلة مهوله... ثم أصبحوا يوم الأحد على ما هم فيه من النهب والخطف ، وتزايد الأمر جداً ، ومنعوا الأمراء من الركوب والمرور في الطرقات وغلقت الأسواق... واستمروا على ذلك إلى يوم الاثنين فلبسوا آلة الحرب وتوجهوا إلى الأزبكية"[١٩٧].

وفي عام ٩١٧هـ/١٥١١م ثار الجلبان على السلطان الغوري لتأخره في النفقة عليهم، فهاجموا شونة السلطان، ودخلوها ونهبوا منها كميات كبيرة من الشعير، فعز ذلك على السلطان ، حتى أن السلطان كاد أن يخلع نفسه من السلطنة [١٩٨]. ونرى في سلوك الجلبان هذا مع السلطان تكراراً لما حدث في الماضي في التطاول على السلطة الحاكمة.

وقد سلك الجلبان نفس السلوك في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ، بنزول طائفة منهم إلى الصليبة ونهبهم بعض البضائع من الدكاكين(١٩٩).

وفي عام ٩٢١هـ/١٥١٥م زادت العلاقة سوءاً بين السلطان الغوري ومماليكه الجلبان الذين قاموا بإغلاق أحد أبواب القلعة في وجه السلطان ورجموه بالحجارة من الطباق ولم يمكنوه من الدخول إلى حوش القلعة "فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفسه من البهدلة ، فرجع إلى الميدان وخرج من باب الميدان... إلى الروضة وعدى إلى المقياس وأقام به ذلك اليوم"(٢٠٠).

وهكذا يتضح لنا أن مصر عانت كثيراً من الثورات والانتفاضات التي كان لها جانبان أحدهما إيجابي وذلك لمواجهة السلطة الحاكمة والمطالبة بالتغيير وتصحيح الأخطاء ، وكذلك المطالبة بالحقوق الاقتصادية من الجوامك والرواتب والنفقات والمخصصات والاقطاعات ، إلى جانب مواجهة الأزمات الاقتصادية وسياسة الاحتكار والمصادرة ، وكذلك التصدي للعسف والجور والظلم من الحبس وتنفيذ العقوبات العنيفة كالتشهير والتوسيط والتسمير وغيرها معنى ذلك أن الثورة والانتفاضة الايجابية تطالب بالخلاص من حكام استبدوا بالبلاد في كل هذه النواحي ، وتمثل ذلك فى تعبير الشعب بمختلف فئاته التي عرضناها من العامة والمماليك والعربان والجلبان كل هؤلاء عبروا عن استيائهم بوسائل عديدة سلمية وعدوانية.

أما الجانب السلبي في هذه الانتفاضات التي عرضناها فتمثلت في السلوك الهدام الذي عبرت به هذه الجماعات عن رفضها وعن مطالبها عن طريق ترويع الآمنين، والسلب والنهب والهدم والسرقة والحرائق وما إلى ذلك من وسائل حاول أصحابها بمفهومهم التعبير عن الرفض، لكن ذلك أدى إلى خراب البلاد وتدهورها واستباحة أراضيها بسهولة من القوى الخارجية.

هذه مصر في عصور مختلفة تتكرر فيها الثورات والانتفاضات والمطالبات ، ولكل زمان وسائله ، لكن نهاية كل ذلك هو حدوث التغيير ، أياً كان في صالح البلاد أو ضدها.

قائمــة المصــادر المطبوعـة

إبن إياس . محمد بن أحمد ، ت حوالي ٩٣٠هـ/١٥٢٤م :

- بدائع الزهور في وقائع الدهور

تحقيق، محمد مصطفى، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٨٤م.

ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي بن محمد ، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م :

- إنباء الغمر بأنباء العمر، ٣ أجزاء ، تحقيق، حسـن حبشـي، القاهرة، ١٩٦٩ – ١٩٧٢ م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق، محمد سـيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م.

ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م :

- الجوهر الثمين في سـير الخلفاء والملوك والسـلاطين، تحقيق، محمد كمال عز الدين، بيروت، ١٩٨٥م.

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر فولرز، القاهرة، ١٩٠٣م.

ابن الصيرفي ، علي بن داود الجوهري ، ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٤م :

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق، حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٩٤م.

- إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق، حسن حبشي ، القاهرة، ١٩٧٠م.

ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم بن علي ، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م :

- تـاريخ الـدول والملوك ، الأجزاء ٨ ، ٩ ، تحقيق، قنسـطنطين رزيق، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٨م.

ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقي ، ت ٧٤٤هـ/١٣٧٢م:

- البداية والنهاية ، ١٤ جزء ، تحقيق، أحمد أبو ملحم، بيروت ، ١٩٨٧م.

ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، ت ٧١١هـ/١٣١١م :

- لسان العرب، ٢٠ جزء، القاهرة، ١٨٨٢-١٨٩١م.

أبو المحاسن ، بن تغرى بردي ، ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء ، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٧٣م .

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تحقيق، محمد محمد أمين ، نبيل عبد العزيز، القاهرة ، ١٩٨٥-١٩٨٨م .

- منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، نشر وليم بوير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م.

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م :

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٧م.

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢م :

- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، محمد مصطفى زيادة ، جمال الشيال، القاهرة، ١٩٤٠م .

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

- السلوك لمعرفة دول الملوك ،

ج ١ ، ٢ ، تحقيق ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٥٨م،٦ أقسام.

ج ٣ ، ٤ ، تحقيق ، سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٩٧٠ – ١٩٧٢م ، ٦ أقسام .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط.بولاق ، ١٢٧٠هـ.

قائمة المراجع العربية

١- حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، ١٩٦٦م.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٥م.

٣- علاء طه رزق ، عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

٤- محمد فتحى الزامل ، التحولات الاقتصادية فى مصر أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ، ٢٠٠٨ م .

٥- محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٣م.

هوامش البحث:

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة ثور.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة نفض.
(٣) عن ذلك : أنظر المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤- ١٩٥٨م ، ص ٣٧٢ ــ ٣٨٦ .
المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق: عبد الحميد عابدين ، القاهرة، ١٩٨٩م ، ص ٩٢.
(٤) حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٨ .
(٥) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، قسم ٣ ، ص ٨٨٤ .
(٦) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ص ٨٢١ .
(٧) ابن كثير، الحافظ عماد الدين ، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم، بيروت، ١٩٨٧م، ج ١٣ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
(٨) المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بخطط المقريزي ، ط. بولاق ، ١٢٧٠هـ ، ج٢ ، ص ٢١٤
(٩) عن ذلك انظر ، المقريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص ١٥٦ .
(١٠) المقريزي ، المواعظ ، ج٢ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .
(١١) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٦٧م،
ص ٦٠ .
(١٢) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ص ٤٧٦.
(١٣) أبو المحاســن بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، القاهرة، ١٩٣٩ ــ ١٩٧٣م ، ج١١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
(١٤) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٧٦ .
(١٥) المقريزي ، الحفظ ، ج١ ، ص ٢٤١ .
(١٦) الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ط. بولاق ، ج١، ص ٢٠ .
(١٧) أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١١، ص ١٦٣ .
(١٨) ابن إياس ، بدائع ، ج١، ص ٢٤٣ - ٢٤٥ .
(١٩) بن حجر ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١، ص ١٤٣ .
(٢٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١، ص ٢٤٨ .
(٢١) السلوك ، ج٣ ، ص ٦١٣ .
(٢٢) ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج١ ، ص ١٨٤ .
(٢٣) عن ذلك انظر أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢١٤ .
(٢٤) عن ذلك أنظر المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ص ٤٠٤ .
(٥) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، تحقيق حسن حبش ، القاهرة ، ١٩٧٠م، ج١، ص ٤٩٧.
(٢٦) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١١، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٢٧) المقريزي، السلوك ، ج٣، قسم ٢، ص ٦١٦ ، راجع هذه الأحداث من ص ٦٤٢ وما بعدها .
(٢٨) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج١، ص ٣٤٥ .
(٢٩) أبو المحاسن ، النجوم، ج١، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣٠) المصدر السابق .
(٣١) حكيم أمين ، قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١٠٣.
(٣٢) المقريزي ، السلوك، ج٣، ٩١٩-٩٢١، أبو المحاسن، النجوم، ج١٢، ص٩٢-٩٥ .
(٣٣) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ص ١٠٨٣ - ١٠٨٦ .
(٣٤) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص ١٣٩ - ١٤٢ .
(٣٥) كان الأمراء الروم الذين حددهم الجراكسة هم "الأمير تغري بردي والأمير دمرداش والأمير أرغون"، وكان فرج قد تزوج من ابنه تغري بردي وأعرض عن الجراكسة. المقريزي ، السلوك، ج٣، قسم ٣، ص ١١٧٤، حوادث ٨٠٨هـ .
(٣٦) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ٣، ص ١١٧٤ ، أبو المحاسن ، النجوم ، ج١٢، ص ١٦٨.
(٣٧) المقريزي ، السلوك، ج٤، قسم ١، ص٢-٣، أبو المحاسن ، النجوم، ج١٣، ص ٤١-٤٨.
(٣٨) المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم ٣ ، ص ١١٤٩، حوادث ٨٤٢هـ .
(٣٩) أبو المحاسن ، النجوم ، ج١٥، ص ٢٤٧-٢٤٩ .
(٤٠) ابن اياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٩٩. المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم ٣ ، ص ١١٥٠.
(٤١) القرانصة هم كبار السن .
(٤٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم٣ ، ص ١٠٩١ .
(43) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، قسم ٣ ، ص ١٠٩٥ .
(٤٤) أبو المحاسن ، النجوم ، ج ١٥، ص ٣٨-٥٦، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٠٤-٣٠٥.
(٤٥) أبو المحاسن بن تغري بردى ، النجوم ، ج١٥، ص ٣٦-٥٦.
(٤٦) علاء طه رزق ، عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ٢٠٠٣م، ص ٣٥.
(٤٧) ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الزهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة، ج١ ، قسم ١ ، ص ٤٣٠.
(٤٨) أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٠، ص ٥٥-٥٦.
(٤٩) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، قسم ١ ، ص ٣٦٥ .
(٥٠) المصدر السابق .
(٥١) ابن دقماق ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال عز الدين ، ج١، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢٥٤ .
(٥٢) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ١ ، ص ٣٦٦ .
(٥٣) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٣٨١ .
(٥٤) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ص ٣٨٢ .
(٥٥) المصدر السابق .
(٥٦) عن ذلك أنظر ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، تحقيق محمد كمال ، ج١، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج١١، ص ١٨٠ ــ ١٨١.
(٥٧) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ .
(٥٨) حكم أمين ، قيام دولة المماليك الثانية ، ص ٥٦ .
(٥٩) أبو المحاسن ، النجوم ، ج١١، ص ٢٦٩ .
(٦٠) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ٢ ، حوادث ٧٩١هـ ، ص ٦١٣ .
(٦١) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٦١٥ .
(٦٢) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ٢٠٧ .
(٦٣) ابن الصيرفي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٦٤) المقريزي، السلوك، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٦٢١ .
(٦٥) المقريزي، السلوك ، ج٣ ، ص ٦٢٧ .
(٦٦) أبو المحاسن بن تغرى بردى، مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة، كمبردج ، ١٧٩٢م ، ص٩٦، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، تحقيق محمد كمال ، ص ٢٧٤.
(٦٧) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ٢٢٥ .
(٦٨) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة التامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، ١٩٦٦م، ج٤ ، ص ٤٤١ .
(٦٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ٢٣٨ .
(٧٠) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٦٩٩ .
(٧١) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ص ١٠٩٥ ــ ١٩٠٦ .
(٧٢) علاء طه رزق ، عامة القاهرة ، ص ٥٧ .
(٧٣) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٦٠٣ ــ ٦٠٤ .
(٧٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١١١ ، ص ١٧٩ .
(٧٥) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ .
(٧٦) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٥ .
(٧٧) المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٦٩٨ .
(٧٨) المصر السابق.
(٧٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٢١٠ .
(٨٠) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ .
(٨١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .
(٨٢) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٧ .
(٨٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٨٠ .
(٨٤) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٥ .
(٨٥) ابن إياس ، المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .
(٨٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .
(٨٧) كان السبب في ضرب الفلوس "جمع فلس" تيسير النقد لشراء الأشياء التي لا يشتريها الدرهم الفضة ، والفلوس الجدد التي ضربها الناصر حسن بن قلاوون سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م وكانت زنة كل فلس مثقال ، وأصبحت أكثر أهمية في عهد الناصر فرج بن برقوق.
المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة، ١٩٤٠م، ص ٦٦ .
(٨٨) محمد الزامل ، التحولات الاقتصادية ، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٢١١ .
(٨٩) محمد الزامل ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .
(٩٠) المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٤٣٩ .
(٩١) المصدر السابق .
(٩٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١٨٩ .
(٩٣) المصدر السابق .
(٩٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ .
(٩٥) ابن إياس ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣
(٩٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .
(٩٧) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩٦٥ .
(٩٨) المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٤٣٠ ، حوادث سنة ٨٢٠هـ .
(٩٩) محمد الزامل ، التحولات الاقتصادية ، ص ٢٦٠ .

(١٠٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٧ .
(١٠١) المقريزي ، البيان والإعراب عما بمصر من الأعراب ، ص ٩٢.
(١٠٢) عن ذلك أنظر المقريزي ، السلوك ، ج٢، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، تحقيق محمد كمال ، ص ٦٦، ص ٢٥٨، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج١، قسم ١، قسم ٢ .
(١٠٣) المقريزي ، السلوك ، ج٣، قسم ١، ص ٣٥٨ .
(١٠٤) ابن الصيرفي ، نزهه النفوس ، ج١ ، ص ٧٦ .
(١٠٥) المقريزي ، السلوك ، ج٣، ص ٦٦٣ ــ ٦٦٤ .
أبو المحاسن ، النجوم ، ج١١، ص ٣٥٢ ــ ٣٥٤ ، ابن الصيرفي ، نزهة النفوس، ص ٢٦٩ .
(١٠٦) يقصد ابن الصيرفي مجموعة المماليك الظاهرية الذين شاركوا العربان ، ص ٢٦٩ .
(١٠٧) حكيم أمين ، قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١٠٤ .
(١٠٨) المرجع السابق ، ص ١٠٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج٣، ص ٨٠٩-٨١٤ .
(١٠٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ص ٤٢٥ .
(١١٠) ابن الصيرفي، نزهة النفوس ، ص ٤٣١ ، المقريزي ، السلوك، ج٣، ص ٨٥٨ ، ٨٦٠ ــ ٨٦٥ .
(١١١) المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم١، ص ٣١٦، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٨-٣٩ .
(١١٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم ١، ص ٤٤٣.
(١١٣) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، قسم ١، ص ٤٤٥ .
(١١٤) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، قسم ١، ص ٤٥١ .
(١١٥) المقريزي ، السلوك ج٤ ، قسم ، ص ٤٥٢ .
(١١٦) المقريزي، السلوك ، ج٤، ص ٦٠٣.
(١١٧) المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم ٣ ، ص ١١٣٢ .
(١١٨) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢ ، ص ٢٦١ .
(١١٩) ابن إلياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٨٩ .
(١٢٠) أبو المحاســن ، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشــهور، تحقيق وليم بوير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م، ج٣، ص ٤٥٩ .
(١٢١) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢ ، ص ٤٤٨ .
(١٢٢) أبو المحاسن ، حوادث الدهور، ج٣ ، ص ٥٣٩ .
(١٢٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٥ .
(١٢٤) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٠٥ .
(١٢٥) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣ ، ص ١٢٦ .
(١٢٦) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .
(١٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .
(١٢٨) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .
(١٢٩) المقريزي ، السلوك ، ج٤، قسم ١ ، ص ٣١٩ .
(١٣٠) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، قسم ١ ، ص ٣١٩ .
(١٣١) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢ ، ص ٣٧٣ .
(١٣٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٩٣ .
(١٣٣) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٠٤، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ٢٧٦ .
(١٣٤) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣، ص ٧٣ .

(١٣٥) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣ ، ص ٥١ .
(١٣٦) ابن إياس ، بدائع الزهور، ص ٧٥ ، ٩٢ .
(١٣٧) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣ ، ص ٢٣٢ .
(١٣٨) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .
(١٣٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ .
(١٤٠) ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٤٠١ .
(١٤١) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣ ، ص ٤١٤ ــ ٤١٥ .
(١٤٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣ ، ص ٦٠ .
(١٤٣) المصدر السابق .
(١٤٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٦٢ .
(١٤٥) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٧٠-٧١ .
(١٤٦) المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(١٤٧) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
(١٤٨) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٤ ، ص ٥١ ــ ٥٢ .
(١٤٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ص ٣٤ ، حاشية رقم ١، أبو المحاسن ، النجوم، ج١٥، ص٢٠، حاشية١.
(١٥٠) ابن الصيرفي، نزهة النفوس ، ص ٣٤ ، والسبب في وقعة الأجلاب أن مماليك يلبغا الجلبان أرادوا خلع الأشرف شعبان سنة ٧٦٤هـ، الذي جمع معه جماعة من الأمراء الكبار والعامة، وكانت النصرة للأشرفية الذين راحوا هم والعامة "يمسكون مماليك يلبغا ويحضرونهم عرايا مكشوفي الرأس"، أبو المحاسن ، النجوم، ج١١، ص ٤٦-٤٨
(١٥١) النجوم ، ج٧ ، ص ٣٢٩ .
(١٥٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، قسم ٢ ، ص ٨٠٤ .
(١٥٣) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ص ١٥٧ .
(١٥٤) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(١٥٥) المصدر السابق ، ص ١٦٠ .
(١٥٦) نفسه .
(١٥٧) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ص ٢٢٩ ، أبو المحاسن ، النجوم ، ج٦ ، ص ٦٧١ .
(١٥٨) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ص ٣٠٤ .
(١٥٩) ابن الصيرفي، نزهة النفوس ، ص ٣٠٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص١٧٦.
(١٦٠) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ص ٤٠١ .
(١٦١) نفسه .
(١٦٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢ ، ص ٢٤٤.
(١٦٣) نفسه .
(١٦٤) ابن إياس ، بدائع الزهور، ص ٢٥٦ .
(١٦٥) ابن إياس ، بدائع الزهور، ص ٣٢١ ــ ٣٢٢ .
(١٦٦) ابن إياس ، بدائع الزهور، ص ٣٢٤ ، ج١، أبو المحاسن ، النجوم، ج١٦، ص ٨٩.
(١٦٧) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٣٢.
(١٦٨) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٣٥ .
(*) الدهيشه ، قاعة بالقلعة عمرها السلطان الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٥هـ ، أنظر ، المقريزي ، الخطط ، م٢، ص ٦٨٠ .
(١٦٩) أبو المحاسن ، النجوم، ج٢، ص١٠٠-١١١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٣٧ .
(١٧٠) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٤٢ .

(١٧١) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٥٨ .
(١٧٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٥٨ .
(١٧٣) أبو المحاسن ، النجوم، ج١٦، ص ٢٥٩.
(١٧٤) أبو المحاسن ، النجوم، ج١٦، ص ٢٧٦، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤١٤.
(١٧٥) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٢٨ .
(١٧٦) المصدر السابق، ص ٤٣٤ .
(١٧٧) أبو المحاسن ، النجوم، ج١٦ ، ص ٩٦.
(١٧٨) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٤٧ .
(١٧٩) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٧٢ - ٤٧٥ .
(١٨٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٢ .
(١٨١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٢ .
(١٨٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٤ .
(١٨٣) المصدر السابق.
(١٨٤) المصدر السابق، ص ٩٦.
(١٨٥) المصدر السابق، ص ١٤٧.
(١٨٦) المصدر السابق، ص ١٩٥.
(١٨٧) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٥٨ .
(١٨٨) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٤٦ .
(١٨٩) المصدر السابق .
(١٩٠) المصدر السابق ، ج٣، ص ٣٠٩ .
(١٩١) المصدر السابق ، ج٣، ص ٣٢٢ .
(١٩٢) المصدر السابق ، ج٣، ص ٣٢٢ .
(١٩٣) المصدر السابق ، ج٣، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.
(١٩٤) المصدر السابق ، ج٣، ص ٣٤٤ .
(١٩٥) المصدر السابق ، ج٤، ص ١٣٦ .
(١٩٦) المصدر السابق ، ج٤، ص ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ .
(١٩٧) المصدر السابق ، ج٤، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(١٩٨) المصدر السابق ، ج٤، ص ٢٤١ .
(١٩٩) المصدر السابق ، ج٤، ص ٤٢٨ .
(٢٠٠) المصدر السابق ، ج٤، ص ٤٨٣-٤٨٦ .